تاريخ أوربـــا فى العصر الحديث

ا . د / رأفت الشيخ
عميد آداب الزقازيق
وأستاذ التاريخ الحديث

د / منى جعفر ولى
مدرس التاريخ الحديث
بآداب بنها

الفصل الأول

مقدمة :

تعتبر القرون من الخامس عشر حتى الثامن عشر بداية للتاريخ الأوربى الحديث ، حيث نهضت أوروبا بعد ظلام العصور الوسطى ونفضت عن نفسها غبار التخلف وانطلقت لتشهيد بعثا جديدا فى مختلف نواحى الحياة الثقافية والدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ولقد بدأ تكوين أوروبا الحديثة فى القرن السادس عشر حيث ظهرت دول وطنية حديثة ذات حكومات مركزية قوية معتمدة على الطبقة البرجوازية ذات النشاط التجارى والصناعى والمالى ، ومن ثم قامت دول على أساس المبدأ القومى على أنقاض الامبراطورية الرومانية ، وان تأخرت بعض الاقطار الاوروبية كألمانيا وايطاليا عن الوحدة القومية .

ونتيجة لقيام الدول الوطنية الحديثة بدأت حركة الكشوف الجغرافية على يد البرتغال ثم الاسبان ثم الفرنسيين فالبريطانيين والهولنديين ، نتيجة توفر عوامل معينة . وشملت الدوران حول افريقيا ثم اكتشاف العالم الجديد المعروف بالامريكيتين وقد نتج عن حركة الكشوف الجغرافية حدوث الظاهرة الاستعمارية بتكوين مستعمرات أوروبية فى افريقيا وآسيا والأمريكتين . وكنتيجة لسيطرة الكنيسة الكاثوليكية على الفكر والعقل الأوروبى فى العصور الوسطى ظهرت الحاجة الى اصلاح أمور هذه الكنيسة فظهرت محاولات اصلاح من داخل الكنيسة و محاولات من خارجها . وكانت حركة مارتن لوثر Martin Luther الاصلاحية ، أظهر هذه المحاولات والتى عرفت بالبروتستانتيية "Protestantism".

من الصعب تحديد تاريخ معين لبداية التاريخ الاوروبى الحديث ، او انتقال اوروبا من العصور الوسطى الى العصور الحديثة .

ولقد اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا فى ذلك ، مما أوجد أربعة آراء رئيسية يعتمد أصحاب كل منها على أدلة وبراهين محددة يعتقدون أنها تؤيد وجهة نظرهم :

الرأى الاول :

يحدد أصحاب هذا الرأى بداية عصر التاريخ الأوروبى الحديث بتاريخ اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ م لما نتج عن هذا الكشف من نتائج هامة حيث عمل على رواج الاقتصاد الاوروبى وازدهاره ، وبالتالى أحدث ذلك ارتفاعا ملحوظا فى مستوى المعيشة ، نتج عنه اتساع دائرة الطبقة الوسطى وازدياد تأثيرها باستمرار واكبه نمو الشعور القومى ، الأمر الذى أدى الى قيام الدول الحديثة على أسس قومية .

كما أسهم اكتشاف رأس الرجاء الصالح وما أدى اليه من تطورات الى الصدام بين الرأسمالية الناشئة والاقطاع الذى كان سائدا فى المجتمع الأوروبى طوال العصور الوسطى . كما تسبب فى ظهور المدن الاوروبية وازدياد عددها وبخاصة المدن الساحلية ، وانحسار دور الريف الى حد كبير وبروز دور الشركات الرأسمالية فى المجال الاقتصادى .

الرأى الثانى :

يتجه أصحاب هذا الرأى الى ان عام ١٤٩٤ م ، هو تاريخ بداية

العصر الأوروبى الحديث ويستندون فى رأيهم هذا على تطورات سياسية كان لها أثرها فى توجيه العلاقات الاوروبية فى الفترات التالية . فقد كان هذا التاريخ بداية لما عرف بالحروب الايطالية .

وبالاضافة الى ذلك ، فان هذه الفترة أنطوت على أهمية خاصة بسبب التكوين القومى والسياسى الجديد . بعد ان كان الاتجاه السائد أثناء العصور الوسطى لاوروبا يسير نحو الوحدة السياسية ، وكانت الناس مدفوعة نحو هذا الاتجاه بالوازع الدينى . فلقد شملت الوحدة الدينية المسيحية الكاثوليكية كل غرب اوروبا ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية بمثابة منظمة كبرى عاش الاوروبيون قرونا عديدة فى ظلها . وكان مطلب أتباع هذه العقيدة هو النجاح فى تحقيق وحدة سياسية كاملة ، تضم المناطق التى تدين بالمسيحية وعلى هذا الاساس كانت هناك امبراطورية على رأسها امبراطور يحكمها حكما زمنيا ، الى جانب البابا الذى يدير أمورها من الناحية الدينية ، ولكن هذه الوحدة السياسية كانت تحمل فى طياتها عوامل ضعفها .

كان من الصعوبة بمكان الاستمرار فى الاحتفاظ بهذه الوحدة لاختلاف القوميات فى اوروبا بعضها عن بعض وكذلك اختلاف الاجناس والعادات والتقاليد من جهة ومنافسة البابوية لسلطة الامبراطورية الزمنية ومحاولة بعض البابوات أن تكون لهم السلطة الزمنية بجانب السلطة الروحية ، من جهة أخرى . ولذا فان الانسان الاوروبى ما كاد يتحرر ، حتى اتجه الى محاولة العثور عن المجتمع الذى يكفل له الأمان والإستقرار . واصبح الاوروبيون يعتقدون أنه لا مبرر للاحتفاظ بعالم مسيحى موحد من الناحيتين السياسية والدينية ، وبدأ التفكير الجدى نحو تكوين ماعرف بالدولة القومية الحديثة .

وبدأ كل شعب يسكن منطقة محددة من الارض لها معالمها الجغرافية المميزة ، وعاداتها وتقاليدها الخاصة ٠ كما بدأ يعتقد فى أهمية الانفصال عن التكوين السياسى الشامل لأوروبا (الامبراطورية الزمنية) التى لم تكن لتستطيع رعاية مصالح هذه القوميات المختلفة ٠ ولقد تواجدت أمور محلية وخارجية ، ساعدت بعض هذه الشعوب على تحقيق هدفها القومى ، بينما عجزت بعض الشعوب الاخرى عن تحقيق وحدتها السياسية فى مطلع العصور الحديثة ٠

وكانت الشعوب التى استطاعت ان تحقق هذا المطلب القومى هى : الشعب الفرنسى حيث توطدت الملكية الجديدة فى أسرة Valois فالوا بتولى الملك لويس الحادى عشر (١٤٦١ ــ ١٤٨٣ م) ٠ وفى عهد خلفائه ، ظلت الملكية الفرنسية تتوسع باطراد عن طريق الميراث والزواج والحرب والغزو ، وبذلك استكملت فرنسا وحدتها القومية ٠

اما بالنسبة للشعب الانجليزى فقد جاء الحكم الملكى الجديد بأسرة آل تيودور Tudors (١٤٨٥ ــ ١٦٠٣ م) حيث وحد اول ملوكها هنرى السابع (١٤٨٥ ــ ١٥٠٠ م) فى شخصة مطالب المدعين السابقين بالعرش ووضع حدا لحروب الوردتين (١٤٥٥ ــ ١٤٨٥) الفوضوية ٠ ثم اخيرا الشعب الاسبانى ، حيث تمت وحدة مملكتى أراغون وقشتالة بزواج فرديناند ملك آراغون بايزبيلا ملكة قشتالة عام ١٤٦٩ ، مما ادى الى ظهور اسبانيا المسيحية موحدة لأول مرة على الساحة الاوروبية ٠

ولذا فانه ماكاد القرن الخامس عشر يشرف على نهايته حتى توطدت دعائم الحكومات القومية فى فرنسا وانجلترا واسبانيا ، واخذت كل هذه

الدول جاهدة تعمل على مراعاة مصالحها الخاصة وتدعيم انظمتها القوميــة الداخلية ، ثم بدأت بعد ذلك تتطلع الى التوسع على حساب الشعـوب الأخرى التي لم تتمكن من ان تحقق وحدتها القومية عند بداية العصور الحديثــة .

وكانت ايطاليا مجالا للأطماع المختلفة ، فدارت فيها الحروب المعروفة بالحروب الايطالية عام ١٤٩٤ م وانتهت بمعاهدة كاتوكمبر سيــس Cateau Cambersis عام ١٥٥٩ م وقد ترتب على هــذه الحروب ان اشتد قلق الدول الاوروبية من تدفق الجيوش الفرنسية على شبه جزيرة ايطاليا من جبال الألب شمالا حتى نابولي جنوبا ، فتحالفت على رد ذلك العدوان حتى لايخل تفوق فرنسا في ايطاليا بالتوازن الدولي ، وقــد أدى ذلك الى ظهور مبدأ "التوازن الدولي" في السياسة الاوروبية ، فقــد حرصت الدول الاوروبيــة منذ ذلك الوقت على هذا المبدأ ، ودخلت فــى سبيل المحافظة عليه حروبا متصلة . ومن هنا فان الحروب الايطالية تعــد في رأى هذا الفريق بداية للعصر الحديــث .

الرأى الثالــث :

يعتمد أصحاب هذا الرأى ان عام ١٥١٧ م، هو بداية التاريـخ الاوروبي الحديث ، حيث أعلن مارتن لوثر Martin Luther فــى ٣١ أكتوبر من نفس العام هجومه على الفساد الذى كان يسود الكنيســة الكاثوليكية وبخاصة بيع "صكوك الغفران" ، وترتب على هذه الثورة الدينيــة أن عددا كبيرا من الاوروبيين ، بل ومن سكان العالم الجديد ، اعتنقوا

المبادئ التى نادى بها مارتن لوثر وغيره من المصلحين من أمثال جون كلفن John Calvin واولريخ زونجلى Ulrich Zwingli وبذلك لم يعد المذهب الكاثوليكى هو السائد فى اوروبا ، وانما بدأ المذهب البروتيستنتى يسود معه جنبا الى جنب ، وترتب على ذلك كثير من الحروب الدينية ، التى كان لها أثرها فى التاريخ الاوروبى ، كما أدت الى تفتيت الوحدة الدينية التى كانت تتمتع بها أوروبا فى العصور الوسطى. وقد شغلت هذه الحروب الدينية اوروبا طوال القرن السادس عشر، والنصف الأول من القرن السابع عشر، وتداخلت معها الاطماع السياسية فى كثير من مراحلها حتى غدت فى كثير من الاحيان حروبا سياسية وأصبحت من اهم سمات التاريخ الأوربى فى تلك الفترة . لذا فان أصحاب هذا الرأى يتخذون من هذه الثورة بداية للتاريخ الاوروبى الحديث .

الرأى الرابع :

ويتجه أصحاب هذا الرأى لجعل عام ١٤٥٣ م، وهو العام الذى سقطت فيه القسطنطينية ،ومعها الامبراطورية البيزنطية بداية لتاريخ أوروبا الحديث او النهضة الاوروبية الحديثة باعتبار ان هذا الحدث قد سبقه ولازمه وتبعه هجرة الكثير من العلماء اليونانيين الى روما وغرب اوروبا يحملون معهم تراثهم الثقافى اليونانى وتأثرهم بالحضارة الاسلامية التى انتشرت بشكل واسع فى الاناضول بين الأتراك والبيزنطيين على السواء. وقد أدى ذلك الى تأثر الفكر الاوروبى بذلك التراث الثقافى مما كان له أبلغ الأثر فى اثرائه وانتشاره بأقاليم غرب اوربا المختلفة .

واذا كانت الآراء السابقة تعكس ظواهر تتدرج كلها تحت مسمى عصر النهضة ، وهى فترة الإنتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ، فإن أى من الآراء السابقة لايكفى لتحديد بداية عصر النهضة .

فبداية عصر النهضة لايمكن تحديدها تحديدا دقيقا لانها فترة من فترات الانتقال تبدو فيها الأفكار القديمة بجوار الأفكار الحديثة فترة من الزمان تقصر أو تطول . وهو ماساد طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين الذين ظهرت فيهما بوادر الرقى على اختلاف أنواعه من ظهور اللغات الحديثة ، وظهور الشعراء الذين تغنوا بهذه اللغات وإنشاء الجامعات فى ايطاليا وفرنسا وانجلترا .

وفى هذين القرنين ايضا ضعف نظام الإقطاع وقوى الملوك وبدأت روح قومية تظهر فى البلاد المختلفة مما مكن هؤلاء الملوك من التغلب على العوامل التى كانت تضعف من سلطتهم وتحول دون تمتعهم باستغلالها كاملا .

ولقد بدرت فى تلك الفترة بوادر الرقى الفنى ، فقد أخذت المدن تتنافس فى بناء الكنائس الكبرى وشرع الرسامون والمصورن والمثالون يزينون الكتب الدينية وجدران الكنائس بالصور والنقوش والتماثيل المستمدة من سير الكتاب المقدس .

وشهد القرن الرابع عشر نشأة الآداب القومية ، فكتب دانتى Dante (مؤلف الكوميديا الالهية) بالايطالية . ونسج منواله كتاب آخرون فى ايطاليا وانجلترا وغيرهما من البلاد . ثم جاء القرن الخامس

عشر فتجلت فيه النهضة بأحلى مظاهرها ، ففيه اخترعت الطباعة على يد جون جوتنبرج John Gotenburg وهو من مدينة Mainz بألمانيا ، وكان الإنجيل اول كتاب طبع بها عام ١٤٥٥ م . ولا نبالغ بذكرنا ان هذا الاختراع يعتبر أعظم اختراع ظهر فى العصور الحديثة ، لانه أحدث انقلابا عظيما فى عالم المعرفة والثقافة ، مما حدا ببعض المؤرخين الى أعتبار القرن الخامس عشر مطلعا للعصور الحديثة .

ان العصور الحديثة بميزاتها تمت بطريقة تدريجية بحيث يصعب تحديد تاريخ معين لنهاية العصور الوسطى فى اوروبا وبداية العصور الحديثة بها . ولذلك يشبه كثير من المؤرخين العملية بالتطور الذى يطرأ على الانسان فى انتقاله من مرحلة من حياته الى مرحلة اخرى مخالفة .

ولصعوبة الفصل بين مرحلة واخرى ، يذهب البعض الى ان عملية التطور هذه استغرقت حوالى ستة قرون مابين القرنين العاشر والخامس عشر الميلاديين ، وان هذه العملية تمخضت عن معالم معينة ميزت التاريخ الأوروبى فى هذه الحقبه ـ وقد شمل هذا التطور التكوين السياسى الاوروبى والمجتمع الاوروبى كل بما فيه العلاقات بين أفراده ونشاط هؤلاء الأفراد فى مختلف المجالات ، كما شمل النواحى الفكرية وغيرها .

واذا كان هذا التغير الشامل قد أطلق عليه النهضة الأوروبية Renaissance اى البعث او الولادة الجديدة فان ذلك مما يجسم الحيرة ، وهل يحسب عمر هذا المولود الجديد من بداية تكوينه فى الرحم أم منذ فترة ولادته . عموما سوف نترك ذلك الى البحث عن الأب الشرعى لهذا "المولود الجديد "

دور الحضارة الاسلامية فى قيام النهضة الأوروبية :

لايوجد أدنى شك فى ان ظهور الدين الاسلامى كان دفعة قوية للفكر العلمى ، مايجعلهيتفتح وينتشر ليزيد من معارف الانسان ورفاهيته ألم يكن معجزته الخالدة كتابا مقدسا هو القرآن الكريم ، وكانت أول آياته " أقرأ " الا تدعو كثير من آياته الى التفكير فى ملكوت السموات والأرض ، والكون والمخلوقات ، كيف خلقت ، و مم خلقت ، ألم تفرق الآيات بين الذين يعلمون والذين لايعلمون وبين الذين أوتوا العلم والذين لم يوءتوه ، ألم يفضل الرسول مجلس العلم على مجلس الذكر ووازن بين مداد العلماء ودماء الشهداء ... الخ . مالايكاد يقع تحت العديد من الآيات والأحاديث كلها حض شديد على طلب العلم .

لذلك ما ان تكونت الدولة الاسلامية وامتد سلطانها من مشارف الصين شرقا الى حدود فرنسا غربا ، حتى أخذ العلماء المسلمون ينهلون من موارد العلوم والفنون المختلفة ، فأخذوا يترجمون الذخائر العلمية وينقلون الى اللغة العربية علوم الاغريق والرومان والفرس والهنود والقبط .. كما نقلت ألوف الكتب والمخطوطات من المكتبات القديمة ، وأنشأت دور الكتب والمكتبات و فتح الخلفاء والأمراء قصورهم للعلم والعلماء وتنافس الحكام فى رعاية العلم والعلماء .

ولسنا بحاجة لأن نستطرد فى شرح حركة التعريب والترجمة التى ازدهرت فى العصر العباسى وغيره من عصور الدولة الاسلامية وانما مايهمنا هنا ، انه فى الوقت الذى كانت فيه دول اوروبا تتخبط فى ظلمات

العصور الوسطى منذ سقوط الامبراطورية الرومانية فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، فى ذلك الوقت الذى ساد فيه الانحطاط العلمى والثقافى ، لم يبق أى اثر للحضارة والعلم فى اوروبا الا بصيص خافت فى المدارس التى لم تكن تهدف الا لتخريج رجال الدين ، بينما حرم الحكام الذين حكموا الممالك فى غرب اوروبا التعليم باعتباره يقتل شخصية الطفل - وقالوا أن الطفل الذى يتعلم الجلوس امام المدرس ويخشى عصاه لا يصلح للحرب والقتال - فى تلك الفترة كان المسلمون فى أوج مجدهم الحضارى . وكانت الحضارة الاسلامية تمثل قمة ماوصلت اليه الحضارات العربية والفارسية والهندية والاغريقية والقبطية ، فالعرب لم يغلقوا على انفسهم أبواب المعرفة بل أخذوا من كل هذه الحضارات وصهروها .

ومنذ أواخر القرن الخامس عشر أخذت الحضارة الاسلامية تزحف الى أوروبا . وكانت هناك ثلاث معابر رئيسية عبرت عن طريقها الحضارة الاسلامية هى : -

١ - اسبانيا .
٢ - جزيرة صقلية .
٣ - الشرق الأدنى .

١ - اسبانيا :

قصة فتح العرب للاندلس وانتشاره فى شبه الجزيرة الأيبيرية معروفة ولاتحتاج الى تكرارها ، وانما الذى نريد توضيحه هو عملية الدمج التى تمت بين العنصرين العربى والاسبانى ، واثرها فى النواحى الثقافية بوجه

عام ، وفى الدراسات التاريخية بوجه خاص ·

إندمج العنصر العربى مع العنصر الاسبانى منذ اللحظة الأولى فى مختلف المدن والأقاليم ، وفى مختلف نواحى الحياة ·

وقد امتزجت دماء المسلمين بدماء المسيحيين عن طريق المصاهرة والزواج ، فإن معظم القادة والجنود من الفاتحين لم يصحبوا معهم زوجاتهم فلما تم الفتح واستقرت بهم الحياة اقبلوا على الزواج من الاسبانيات · وأول من فعل ذلك كان عبد العزيز بن موسى بن نصير ، فقد تزوج من أيلة أرملة لذريق آخر ملوك القوط · وقد أسلمت بعد زواجها وتسمت باسم " ام عاصم " وأقامت مع زوجها فى اشبيلية ·

وقد اعتنق عدد من الاسبان الدين الاسلامى فعرفوا " بالمسالمة " كما شب جيل من أولاد المسلمين الذين تزوجوا من اسبانيات ، وهؤلاء كونوا طبقة اخرى عرفت " بالمولدين " ·

بقى كثير من الاسبان على دينهم فلم يسلموا ، وسمى هؤلاء " بالمستعربين " ، لانهم عاشروا العرب واختلطوا بهم وتأثروا بهم فى سلوكهم وعاداتهم وملابسهم ونواحى حياتهم المختلفة ·

ولم يقتصر الامر على الاندلسيين بل على القادمين الى اسبانيا من مسيحيين من مختلف البلاد الاوروبية ليدرسوا مع الاسبان على أيدى الاساتذة والمعلمين من عرب ومسلمين · وكانت مدينة طليطلة Teledo التى استردها الاسبان عام ١٠٨٥ م ، أول وأعظم مركز لنقل الثقافة من المسلمين الى المسيحيين فى الغرب ·

٢ ـ صقليـــة :

فتح " الأغالبة " جزيرة صقلية فى أوائل القرن الثالث الهجـــرى وظلت تابعة لهم طوال عهد حكمهم فى افريقية (تونس) ، ثم دانــت بالولاء للفاطميين بعد ان قضوا على دولة الاغالبة فى السنوات الاخيرة من القرن الثالث الهجرى (٩ م) . وقد انتشر العرب فى الجزيرة خلال هذين العهدين ، وانتشر معهم الدين الاسلامى والثقافة العربية ، وبنيــت المساجد الكثيرة فى مدن الجزيرة المختلفة .

وقد عاصرت حركة الاسترداد المسيحى فى جزيرة صقلية مثيلتها فى اسبانيا . ففى اواخر القرن الخامس الهجرى (١١ م) نجح النورمان فـى الاستيلاء على الجزيرة ولكنهم اتبعوا سياسة مختلفة ، فلم يقضوا على العرب وانما قربوهم اليهم وعينوا منهم الكثيرين فى الوظائف الحكومية ، واحتضنــوا الثقافة العربية اسبغوا الهبات والعطايا على علماء العرب وخير مثال علـى ذلك هو مافعله الملك روجر الثانى حين استدعى الى بلاطة العالم الجغرافى العربى الكبير " الشريف ابو عبد الله محمد بن الادريسى " (١١٦٤ ـ ١١٦٥ م) وكلفه بعمل كرة ارضية وخريطة للعالم فعملها ، والف كتابــه المشهور "نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق " لوصف هذه الخريطـة .

وقد خلف العرب ورائهم ــ بعد ان سلموا الجزيرة للنورمان ــ تراثا ضخما من الحضارة العربية التى ظلوا يقيمون صرحهـا قرابة ثلاثة قـرون كما تركوا فى الجزيرة ــ فى خزانات الكتب ، ولدى من بقى من العـرب بها وفى جنوب ايطاليا كذلك ، عددا كبيرا من المؤلفات فى مختلـف الوان العلوم والآداب .

وهكذا أصبحت جزيرة صقلية فى عهد النورمان ، المعبر الثانى الذى انتقلت عن طريقه الثقافة الاسلامية الى اوروبا .

٣ ـ الشرق الأدنى : ابان الحروب الصليبية :

ذكرنا فيما سبق بعض المؤثرات التى تركها التراث الثقافى والتاريخى العربى فى الفكر الاوروبى عبر المركزين الأوروبيين : اسبانيا وصقلية .

ولكننا نلاحظ انه على الرغم من نشاط حركة الترجمة فى هذين المركزين فان الفائدة من هذه العلوم كانت مقصورة على أوساط معينة من المثقفين ورجال الدين ، ولم يستتبع نقل هذه العلوم انتشار اللغة العربية أو معرفة جماهير الناس بالاسلام والتاريخ العربى والاسلامى ، ولهذا فان الشعوب الاوروبية لم تكد تستمع الى نداء البابا اربان الثانى فى مجمع " كلير مونت " ١٠٩٥ م [١] حتى آمنت بكل ما قال ، واسرع الكثيرون منهم الى حمل السلاح والصليب ، وبذلك بدأت الحروب الصليبية التى تعتبر بحق حلقة هامة من حلقات العلاقات بين الشرق والغرب .

وعلى الرغم من كثرة المعارك والقتال المستمر بين الصليبيين والمسلمين فان العداوة لم تكن هى وحدها المسيطرة على علاقات الفريقين ، فأحيانا سادت علاقات ود وصداقة ، لأن الصليبيين الوافدين من الغرب الاوروبى كانوا يمثلون أقلية بالنسبة للإمارات التى أسسوها على سواحل الشام وفلسطين

(١) كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس (باعتباره مهد المسيحية) هو بداية الحروب الصليبية او الحرب المقدسة كما وصفها الاوروبيون .

فكان لابد لهم من الاعتماد على السكان الاصليين لهذه المناطق فى زراعة الأرض وفى إنشاء الكنائس والحصون والقلاع وفى معظم شئون الحياة الاخرى ٠

ولقد سادت علاقات ودية وأتيمت مباريات الصيد فى كثير من الاحيان بين أمراء الصليبيين وجيرانهم من الحكام المسلمين ٠ كما كانت التجارة مجالا آخرا للتقارب والتعارف بين الفريقين ، وخاصة فى فترات السلم بعيدا عن ميادين القتال ٠٠ وقد ابرمت اتفاقيات ومحالفات كثيرة بين الامراء المسلمين ونظرائهم المسيحيين ، عندما كان أحد الفريقين يجد نفسه فى حاجة الى حليف من أعدائه ضد عدو من قومه ٠

وما كادت المرحلة الاولى للحروب الصليبية تنتهى حتى كانت السحب التى تفرق الفريقين قد انقشعت ، وبدأ كل فريق يرى نظيره على طبيعته وبدأت تختفى بالتدريج الصورة القديمة التى فى مخيلة الصليبيين عن المسلمين فلم يعودوا يرونهم كجنود قساة غلاظ القلوب او كفرة وعابدى الأوثان ، بل شهدوا لهم بالبسالة فى القتال والورع فى العبادة والسماحة فى معاملة أصحاب الأديان الاخرى ، مما أطلق السنتهم بالاعجاب والتقدير ، وخير دليل على ذلك مارواه أرنولد لوبك فى حولياته : Arnold of lubeck: Chronicle على لسان الامير الصليبى بوركارد Burchard ٠ (١)

وبالتالى أدت العلاقات الودية والاحتكاك بين الفريقين الى تغيير نظرة الاوروبيين الى الحضارة العربية والى استيقاظهم من سباتهم ، وبدأو يتأثرون بها ٠ فبدأت فى اوروبا نهضة جديدة يطلق عليها البعض (النهضة الوسيطة) ٠

---

(١) أرسل هذا الامير فى بعثة من قبل فردريك بربا روسا الى صلاح الدين فعاد ليروى لأصحابه صورة حقيقية ومنصفة عن معتقدات المسلمين ٠

الفصل الثاني

أولا ــ النهضة فى ايطاليا

تعد ايطاليا المهد الأول للنهضة فى أوروبا ، ومنها أخذت تنتشر الى مناطق هذه القارة المختلفة حتى سادت كل غرب اوروبا . وكانت بداية النهضة فى ايطاليا هى مقدمة للتغير الذى عم كل القارة فيما بعد .

وهناك عدة أسباب جعلت من ايطاليا مهد النهضة الحديثة Renaissance فى أوروبا وهى : ــ

١ ــ أنها مهد للحضارة الرومانية :

تعتبر ايطاليا مركزا للحضارة الرومانية القديمة بكنوزها فى العلوم والآداب والتماثيل والتصوير والآثار والمسكوكات الخ .. مما جعل سكان ايطاليا ان يكونوا على صلة وثيقة ودائمة بآداب العصر الرومانى وفنونه وقوانينه المختلفة ، فتأثروا بذلك وتطلعوا لأن يكونوا على شاكلة أجدادهم الرومان فى محاولة إحياء مجدهم القديم المندثر . ولقد وجد علماء وأدباء فنانو حركة النهضة فى ايطاليا نماذج حية ، فعملوا على محاكاتها ودراستها والاجتهاد فى بعثها .

٢ ــ المدن الايطالية :

كانت الوضع مختلفا بالنسبة لمدن أيطاليا عن بقية مدن أوروبا ــ فقد تهيأت بطبيعة موقعها ومركزها أكثر من غيرها لاستقبال العلوم والفنون .. لأن

مدن فلورنسا وجنوة والبندقية كانت فى تلك الفترة قد نفضت عنها أعباء العهد الاقطاعى ، الذى كان سائداً فيها ، واصبحت مستقلة لا يسودها سوى القانون . بالاضافة الى موقع هذه المدن الجغرافى الفريد على مقربة من الدولة البيزنطية مما جعلها تستفيد من الاساتذة الزائرين من الاغريق ، ممن وفدوا اليها ليحاضروا فى جامعاتها ومعاهدها ، كما سهل على علمائها النهل من الدراسات الاغريقية بالانتقال الى القسطنطينية .

٣ ـ الموقع الجغرافى :

كان موقع ايطاليا فى مركز متوسط على ساحل البحر المتوسط فى عصر كان هذا البحر يعتبر مركزا لتجارة العالم ، مما أكسب ايطاليا أهمية قصوى فأصبحت حلقة الاتصال بين اوروبا من جهة وبلاد الشرق الادنى والشرق الاقصى من جهة اخرى فاتسعت تجارتها ونمت صناعتها ، فكثر الرخاء فى مدنها المختلفة مثل جنوة وميلان والبندقية وفلورنسا ..

وكان لهذا الرخاء والازدهار أهمية فى الاهتمام بكل ما هو مميز وجميل فى عالم الأدب والفن . كما كان لهذا الرخاء الفضل فى تشجيع العلماء والأدباء على اقتناء الكتب النادرة واللوحات الفنية الخالدة .

٤ ـ قيام دويلات سياسية متنافسة فى ايطاليا :

اشتد التنافس بين الاسر الحاكمة فى ايطاليا على تشجيع العلوم والآداب والفنون ، وان تميز عصر النهضة فى ايطاليا بأنه كان عصر الطغاة الذين استبدوا بالحكومة والامارة فى ميلان ومانتوا وفراره وأوربينو وريمينى

وفلورنسا ، ثم مملكة نابولى والولايات البابوية . ولم يشذ عن ذلك سوى جمهورية البندقية التى ظلت تقيد رئيس حكومتها فى عملة ونفوذه . وكان هؤلاء الامراء الطغاة والمستبدون على قدر عظيم من الكفاءة والمهارة . وكان لاغنى عن هذه الكفاءة والمهارة اذا أرادوا الاحتفاظ بسلطانهم الذى لا يستند على مبرر شرعى . فكانوا لذلك يحسنون معاملة الطبقات الدنيا فى المدن والمزارعين خارج أسوارها ثم سكان المدن المغلوبة على أمرها حتى يؤازروهم ثم أنهم أقبلوا على تشجيع الكتاب والعلماء والفنانين أملا فى اكتساب السمعة الحسنة والشهرة الطيبة ، ولانهم كانوا يميلون بطبيعتهم لتقدير النبوغ مثال چيان جليانزو فى ميلان وهو من أسرة "ڤيزكونتى" ، ثم فرانسيسكو سفرزا من أسرة "سفرزا" التى انتقل اليها الحكم فيما بعد . وكان فرنسيسكو سفرزا من صميم القرن الخامس عشر خرج على التقاليد الخلقية فى علاقاته ومعاملاته مع الغير ، ولكنه كان حاكما عادلا مستنيرا يحترم الأدب والعلم ويشجع العلماء البيزنطيين الذين وفدوا على ايطاليا فى وقته ثم العلماء الايطاليين كذلك .

أما فى فلورنسا فقد حكمت أسرة "مديتشى" والتى سنعود اليها فيما بعد :

٥ ـ مقر الزعامة الدينية فى أوروبا :

أضفى وجود البابوية فى روما على ايطاليا مركزا ممتازا فصارت قبلة العالم المسيحى ، ورغم انغماس كثيرين من رجال الدين فى الملذات ـ فقد أنفق كثير من البابوات الكثير من الاموال التى تدفقت على الكنيسة فى النهوض بالعالم ، وكان كرمهم الزائد من الحوافز التى شجعت الفنانين

والأدباء على تلبية دعواتهم ٠

ويعتبر البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ – ١٤٥٩) من أهم البابوات الذين انجزوا الكثير فى عصر النهضة ، فهو مؤسس مكتبة الفاتيكان ، ثم ليو العاشر (١٥١٣ – ١٥٢١) وهو من أسرة الميديتشى Medici وهو واضع أساس كنيسة القديس بطرس ٠

أهم مراكز النهضة فى ايطاليا

أ – فلورنسا :

حكمت أسرة مديتشى Medici فلورنسا خلال القرن الخامس عشر واشتهر فيها الأمير كوزيمو دى ميديتشى Cosimo de Medici (١٤٣٤ – ١٣٦٤ م) ، وكان مشجعا للعلوم والآداب والفنون ومحبا للتنقيب عن الوثائق القديمة واقتنائها ٠ وكانت فلورنسا المهد الأول لعظماء رجال النهضة الأدبية والفنية ٠ ومن أعلام النهضة الأدبية بترارك Petrarch الذى بدأ عمله الأدبى بكتابة ملحمة شعرية يطلق عليها أفريقيا Africa وهى تتناول بعض حوادث الحروب التى وقعت بين روما وقرطاجنة ٠

أما نيقولا مكيافيللى Machiavelli فألف كثيراً من المسرحيات والقصص والأشعار ولكن شهرته العظيمة ترجع الى كتابة " الأمير " الذى نشر عام ١٥٣٢ – وقد ألف جيشاروين كتاب " تاريخ ايطاليا " كما بلغ چيبرتى Ghiberti درجة الاتقان فى الحفر البارز ٠

ب ـ روما :

كان من المتوقع ان يتصدى البابوات للدفاع عن أفكار العصور الوسطى ومعارضة النهضة الحديثة ، ولكن ماحدث كان العكس تماما اذ سرعان ماجرفهم إشعاع النهضة فعضدوها على أساس أن لغة الاغريق وعلومهم تمكن القسس من الإلمام بأصول دينهم وتؤيدهم فى جدلهم وحججهم الدينية .

فقرب البابا نيقولا الخامس اليه العلماء وكافأهم على ترجمة العلوم الاغريقية . وكان البابا اسكندر السادس خير من يمثل العلمانية الجديدة عندما أراد ان يجعل الحكم فى الفاتيكان من نصيب أسرة بورچيا Borgia التى ينتمى اليها فملأ المناصب بأولاده غير الشرعيين وصار يدبر المكائد معتمدا على إبنه سيزار بورچيا Cezar Borgia دوق ڤالنتنوا فى إخضاع ايطاليا لسلطة سياسية واحدة والاستيلاء على الامارات والمدن المختلفة سواء عن طريق الفتح والحرب او التسليم والخيانة ، ولكن سرعان ماقضى على هذه السياسة عندما اعتلى كرسى البابوية البابا الجديد يوليوس الثانى (١٥٠٣ ـ ١٥١٣) وكان هذا البابا من ألد اعداء بيت بورچيا .

على انه كان من أثر وقوع هذه الاضطرابات فى الولايات البابوية وانصراف البابوات الى الاهتمام بالشئون الدنيوية وانغماسهم فى الملذات ان حدث رد فعل كبير ضد النهضة التى صحبها هذا التراخى الخلقى الشديد ، وكان حامل لواء هذه المقاومة سافونا رولا Savona Rola فقد سخط سافونا رولا على النهضة سخطا شديدا ونقد حياة معاصريه الخاصة والعامة نقدا مريرا وحمل على الكنيسة والبابا اسكندر السادس . ولكن

حملته على البابوية سرعان ما أسفرت عن إتهامه بالهرطقة، فأحرق لكفره فى فلورنسا فى مايو ١٤٩٨ م.

ولاتتم دراسة النهضة فى ايطاليا من غير الاشارة الى اعلامها الأوائل ومنهم دانتى اللجيرى Dante الذى وقف بكتاباته عند مفرق الطرق بين العصور المتوسطة والحديثة . ذلك أنه تناول موضوعات العصور الوسطى فتكلم عن البابوية والامبراطورية، والمطهر والجحيم الى آخره فى كتابه عن الملكية والكوميديا الالهية، الى جانب الموضوعات العاطفية الحديثة . هذا الى انه كتبه باللغتين اللاتينية والايطالية الحديثة اى باللغة الاهلية، واليه يرجع الفضل فى تقريب الكتابة بالايطالية الى قلوب معاصريه كخيروسيلة للتعبير عن الشعور النفسانى .

ومن اشتهروا فى عصر النهضة ميكل أنجلو Michael Angelo (١٤٧٥ ـ ١٥٦٤) الذى كان رساما ومهندسا ومعماريا وشاعرا ويعتبر أقوى واشهر فنانى عصرالنهضة . ومن أجمل أعماله صورة " يوم القيامة "، بمقصورة البابا بالفاتيكان . اما رفائيل Raphael (١٤٨٣ ـ ١٥٢٠) فكان مهندسا معماريا ومصورا من معاصرى ميكل انجلو، ومن أعظم اعماله صور العذراء الكثيرة التى تعد من أعظم ما أبدع مصورو عصرالنهضة فى ايطاليا من العباقرة العالميين . وفى فن التصوير كذلك وجد ليوناردو دافنشى Leonardo Davinchi (١٥٤٢ ـ ١٥١٩) الذى اشتهر بنشاطه فى فروع شتى من الفنون والعلوم، فتميز فى عالم الرسم والنحت والمعمار والهندسة . ويوجد الآن بمتحف اللوفر فى باريس، بعض من أحسن لوحاته : العذراء بين الصخور، العذراء والقديسه آن، اما أشهرها

فهى لسيدة من فلورنسا اشتهرت باسم الموناليزا Monalisa استطاع دافنشى بمواهبه الفذة ان يجعل من هذه السيدة المجهولة شيئا مذكورا فى التاريخ .

ويرى البعض ان ميكل انجلو وروفائيل ودافنشى يشتركون فى تكوين ثالوث الفن فى القرن السادس عشر ، بما حققوا من أمجاد فنية ستظل على توالى العصور فى مقدمة ما أبدعه الانسان فى ميدان الفنون الجميلة .

ثانيا ـ النهضة فى فرنسا

فى الوقت الذى ازدهرت فيه النهضة فى ايطاليا فى النصف الاول من القرن الخامس عشر ، كانت فرنسا تعانى من توقف نموها الثقافى ، وكان السبب فى ذلك يرجع الى حروب فرنسا مع انجلترا والتى عرفت بحروب المائة عام [1] (١٣٣٧ ـ ١٤٥٣) وانتهت بتوحيد فرنسا .

---

(١) حرب المائة عام من أشهر الحروب فى التاريخ الاوروبى الحديث وأطولها مدى وقعت بين عامى ١٣٣٧ ـ١٤٥٣ بين انجلترا وفرنسا وكان السبب الرئيسى لها ان ملوك انجلترا ـ الذين كانوا بوصفهم دوقات مقاطعة "جويين" الفرنسية أتباعا لملوك فرنسا ـ عارضوا سياسة العرش الفرنسى فى جنوحها الى تركيز السلطة .

وأبدى ملوك انجلترا إمتعاضا لتقديم ولائهم لفرنسا وخضوعهم لصاحب التاج الفرنسى بالنسبة لممتلكاتهم فى قارة أوربا .

على ان فرنسا ما كادت تنتهى من الحروب مع انجلترا حتى بدأت تعانى من صراع داخلى بين الملك لويس الحادى عشر والنبلاء الاقطاعيين وهو الصراع الذى انتهى بهزيمة مجموعة النبلاء ولقد كانت هذه الحروب الخارجية والداخلية من أهم الاسباب التى أدت الى توقف تيار الثقافة الفرنسية ولاسيما فــــى ناحية الفـــن .

لكن بعد ما بدأ الاحتكاك بين فرنسا وايطاليا ، عندما اجتاحــــت الجيوش الفرنسية ايطاليا ، فى عهد كل من شارل الثامن ولويس الثانى عشـــر وفرنسوا الأول ــ ملوك فرنسا ، اندهش هؤلاء الملوك ومن معهم بمـــا شاهدوا من تقدم حضارى منقطع النظير فى شتى نواحى المعرفة وفـــى مختلف ألوان الفنون ، فحاولوا جاهدين ان ينقلوا هذه الحضارة الحديثة الى فرنسا حتى لاتقل عن ايطاليا فى التقدم الحضارى .

ومن أهم أدباء فرنسا باديوس Badius الذى اشتهر باتقان اللغة الاغريقية واعتبر من أعظم علمائها ، وهو الذى ساعد فرنسوا الأولـــ وأخته مرجريت على انشاء كلية فرنسا Le Collège de France عام ١٥٣٠ م اما فرنسوا رابليه François Rabelais فكان أول أمره راهبا ثم صار طبيبا وداعيا للبحث العلمى ، وهو أول عالم فرنسى خالف أمر البابا ، وشرح جثة انســـان .

ولقد تفوق العلماء الفرنسيون فى دراسة القانون الرومانى القديم وكان فى مقدمة الفقهاء الفرنسيين جاك كوجا Jacques Cojas أكبر المفسرين للأصول القانونية الرومانية فى عصــره .

وإذا كانت فرنسا ـ وقد استمدت من ايطاليا نهضتها ـ قد اهتمت بالناحية العلمية بتشجيعّ ملوك فرنسا أنفسهم مما كان سببا فى وفود عدد من العلماء الايطاليين اليها ، فانها من الناحية الفنية والأدبية قد اختلفت عن ايطاليا فى النظرة الى التراث القديم ·

فالفكر الايطالى استسلم تماما ودون تحفظ الى التراث الكلاسيكى فقد وجدت فى ايطاليا رغبة قوية فى تشرب الروح الكلاسيكية ، ونشرها بدقة وأمانة اما الفكر الفرنسى فكان مختلفا ، فاستقل بروحه عن التراث القديم ، وأن نظر الى أعمال القدماء بتقدير يقترن بالذكاء ، فاقتبس العلماء والفنانون والأدباء ماراقهم من المميزات القديمة وطعموها بخصائصهم الذاتية ، فكان إنتاجهم الادبى والفنى شيئا مبتكرا يغاير انتاج الايطاليين الذى كان نسخة مطابقة للتراث القديم ·

ثالثا ـ النهضة فى انجلترا

تأخرت النهضة كذلك فى انجلترا لانشغالها فى حروبها ضد فرنسا ولكن تبلور الفكر الثقافى فيها على يد فريق من العلماء الانجليز الذين سافروا الى ايطاليا واحتكوا بالنهضة الحديثة بها · وكان من بينهم توماس ليناكر Thomas Linacre الذى زار البندقية والتحق بالاكاديمية الجديدة هناك ، ووليم جروسين William Grocyn الذى درس فى فلورنسا · ومن هؤلاء ايضا وليم ليلى William Lilly الذى درس اليونانية فى روما ·

وهؤلاء العلماء اهتموا بصفة خاصة بدراسة اللغة اليونانية وكانوا جميعا من جامعة اكسفورد Oxford فأطلق عليهم مصلحو اكسفورد Oxford Refermers . أما بالنسبة الى جامعة كمبردج ، فقد وجدت دراسة اليونانية طريقها الى هذه الجامعة على يد إرازموس Eras mus (العالم الهولندى) ابان زيارته الثانية لانجلترا فيما بين عامى (١٥١٠ ــ ١٥١٣ م) فكون حلقة صغيرة تضمنت بعض الطلاب المجتهدين ، كان منهم هنرى بولك Henry Bullok . ومن أعلام النهضة توماس كوليت Thomas Colet الذى أدخل دراسة اللغة الاغريقية فى جامعة اكسفورد ، وتوماس مور Thomas Moore وقد كان كلاهما صديقا لأرازموس .

وبمقارنة الحركة الانسانية فى انجلترا بغيرها من دول اوروبا نلاحظ ان حركة الإحياء فى انجلترا لم تتجه كما حدث فى ايطاليا وفرنسا اتجاها علمانيا، ولم تشتمل الأدب والفن فحسب بل نراها فى انجلترا تتجه لخدمة المسيحية فتشمل الدين الى جانب الأدب والفن .

ويرجع الفضل فى ذلك الى " إرازموس " وصديقه " كولت " ، فقد شاهدت انجلترا على ايديهما إحياء قراءة العهد الجديد بالاغريقية والعهد القديم بالعبرية .

كما نلاحظ ان انجلترا لم تسهم فى النهضة الاوروبية العامة بإضافة شىء جديد الى تراث الدراسات الانسانية الاوروبية الا فى القرن السابع عشر ففى القرن السادس عشر اقتصر عمل الإنسانيين الانجليز على الكلاسيكيات اليونانية والرومانية Greek and Roman Classics وعلى ترجمة كتابات أدباء النهضة

الايطاليين الى الانجليزية . ولكن عندما بدأ القرن السابع عشر ، ظهر إبداعهم الفكرى مثلا فى اشعار وليم شكسبير William Shakespeare (١٥٦٤ ـ ١٦١٦) والشاعر چون ملتون John Milton (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤) .

رابعا ـ النهضة فى ألمانيا

فى خلال القرن الخامس عشر لجأ عدد من الطلبة الألمان الى الاعتكاف على الدراسات الجديدة فى المراكز الايطالية المتعددة . وكان من أوائل من نزح الى ايطاليا من الطلبة الالمان چوهان مولر Johann Muller (١٤٣٦ ـ ١٤٧٦ م) وهو أول من طبق روح النهضة على دروس العلوم الكونية ، وتميز بدراساته العميقة فى الفلك . ولما رجع علماء المانيا الى تراثهم القديم لم يجدوه وثنيا كما وجد الايطاليون تراثهم ، انما وجدوا القوة فى المسيحية الاولى ، وراعهم الفرق مابين رسلها الاولين وممثليها فى عصرهم ومن هنا نشأ بغضهم لرجال الدين ، فسخروا أقلامهم للدعوة الى الرجوع الى مسيحية الانجيل فى بساطتها وتقواها وإخلاصها .

ومن الأعلام الذين اشتهروا فى عصر النهضة چوهان روخلن Johann Reuchlin (١٤٥٥ ـ ١٥٢٢ م) ، الذى تعلم الاغريقية فى باريس وروما وصمم على اتقان العبرية ، بوصفها مفتاح العهد القديم ، فمازال بها حتى حذقها ، ووضع لها نحوا ومعجما ، ومن هنا نشأت رابطة قوية بين الفكر الانسانى ودراسة الكتاب المقدس دراسة علمية سليمة مماأدى الى تفهم العقيدة المسيحية تفهما صحيحا . ومن أقرانه ملانكتين Malanchthon

(١٤٩٧ ـ ١٥٦٠ م) أستاذ اللغة الاغريقية فى جامعة وتنبرج Wittenburg ، وهو الذى حث مارتن لوثر Martin Luther المصلح الدينى على تعلم اللغة الاغريقية وكان ساعده الايمن حين ثار لوثر على المذهب الكاثوليكى ٠

فالفكر الجديد فى المانيا تمثل فى شكل فلسفة دينية ، خالية من البهجة تعوزها ملكات الذوق وحب الجمال ٠ فلم يظهر فى ذلك الفكر ما يشبه الشعور الايطالى فى حبه وتعلقه بآداب الاقدمين وجمال الأساليب الأدبية والفنية عندهم ٠ بينما أظهر الالمانيان المعاصران للفنانين الايطاليين ـ وهما ألبرت دورر Albert Durer ومولبين Molbein براعة فى فن البناء لاتقل عن براعة الايطاليين حتى أصبحت مدينتهما نورنبرج Norenburg "فلورنسة المانيا " ، ولكنهما تمسكا بطراز العصور الوسطى اى الطراز القوطى ٠

اتجهت النهضة فى ألمانيا اذن لخدمة الاصلاح الدينى واتخذت أشكالها فى دراسة الكتاب المقدس.كما كتب باليونانية فى مهاجمة رجال الدين ومحاربة البدع والخرافات الدينية التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، ولقد تبلور هذا الاتجاه فيما بعد الى حركة الأصلاح الدينى The Reformation وهى حركة معادية للكنيسة الكاثوليكية صاحبها العنف وانتهت بحروب دينية مدمرة عصفت بالكثير من الفنون الالمانية المعاصرة ولاسيما فن البناء ، وان خلقت من ناحية اخرى فنا جديدا هو الموسيقى ، يتطور مع مرور الزمن حتى اذا كان القرن الثامن عشر كانت المانيا تقود أوروبا فى هذا المجال ٠

خامسا ـ النهضة فى الأراضى المنخفضة

قبل ان تختفى النهضة من ايطاليا أخذت تتسرب عن طريق جبال الالب الى بقية أوروبا . والفضل كله يعود فى هذا التسرب الى رسول الانسانية فى الشمال " ديزيدريوس أرازموس Desiderius Erasmus (١٤٦٦ ـ١٥٣٦) . وهو عالم هولندى تجول فى معظم ممالك أوروبا ، وأخذ يعمل على زيادة الأهتمام بدراسة العلوم والآداب القديمة أينما ذهب . وقام بنفسه بتدريس اللغتين اللاتينية واليونانية ، وكان محبا للتنقيب عن الكتب القديمة وجمعها ونقدها ، والعمل على الإفادة منها وكتب عدة كتب باللغة اللاتينية .

ولقد اهتم بالناحية الدينية فى دراساته وأبحاثه ، ولكنه كان يكره موسيقى الكنيسة ، ويخشى ان يوافق إحياء علوم الاغريق على نشاط الوثنية . وكان أهم عمل له هو نشر النسخة الاغريقية الاصلية للانجيل مرفقة بترجمة لاتينية صحيحة وتفسيرات جديدة . وكانت هذه الترجمة فاتحة عصر جديد ، اذا اجتذبت القراء الذين يفضلون جمال الاسلوب والذين يقدرون تعليقاته المهمة فى الموازنة بين المثل الاعلى للمسيح وبين ماكانت تفعله الكنيسة آنذاك . فالدراسات الانسانية فى نظر هذا العالم هى الدواء لمحاربة أمراض وشرور اجتماعية كثيرة متفشية فى المجتمع الاوروبى : مساوىء الكنيسة ، سلوك كبار رجال الدين ، الأمية المتفشية فى صغار رجال الدين ، الخرافات الاجتماعية عند عامة الناس وأخيرا انحطاط المستويات الاخلاقية عند الخاصة والعامة .

فأرازموس من هذه الزاوية يعتبر مربيا • والدراسة التى جذبته اكثر من غيرها كانت دراسة الكتاب المقدس ، شرحه ونقده • وكان يريد ان يخرج الناس من كاثوليكية العصور الوسطى الى بساطة المسيحية الأولى • ومن أهم مؤلفاته كتاب " مديح الجنون Eloge de la Jolie الذى نشر عام ١٥١٠ م ، نقد فيه الحالة الاجتماعية السائدة وتصرفات رجال الكنيسة وكشف جهل القساوسة وماوصلت اليه أخلاق رجال الدين من سوء •

وكان إرازموس أكبر ممثل للنهضة خارج ايطاليا ، دعته كل من انجلترا وفرنسا والمانيا ، لانه أقام فى كل منها مدة ، والتف حوله عدد كبير من علماء تلك البلاد • وبالرغم من شعوره هو وكثير من مفكرى عصره بمساوئ الكنيسة والاديرة وضرورة اصلاحها ، لكنهم لم يفكروا فى تزعم أية حركة إصلاحية دينية •

ومن المصوريين الهولنديين المشهورين فان ايك Van Eyck وصوره تمتاز بالجلال اكثر من تميزها بالجمال ، ومثال ذلك صورة العذراء التى رسمها •

سادسا — النهضة فى شبه جزيرة أيبريا

لقد انتقلت بذور الحركة الانسانية الى شبه جزيرة أيبريا عن طريق عدد قليل من التلاميذ الذين زاروا ايطاليا فى القرن الخامس عشر • وكان أول هؤلاء هو أرياس باربوسا Arias Barbosa الذى درس فى ايطاليا وعاد ليحاضر فى الاغريقية لحوالى عشرين سنة فى جامعة سلامنكا Salamanca فجذب الطلاب نحوه بسعة معرفته اللغوية بالإضافة الى

ذوقه في الشعر . وقد فاته شهرة معاصره انطونيو لبريسكا Antonio Leberisca الذى تجول ودرس في ايطاليا مايقرب من عشر سنوات ثم عاد الى اسبانيا في عام ١٤٧٣ وقام بالتدريس في جامعة اشبيلية Seville وسلامنكا والكالا Alcala وكان أقل دراية من "باربوسا" في الاغريقية لكنه يفوقه اطلاعا بصفة عامة ولا سيما في العبرية .

وهكذا كانت شبه جزيرة أيبريا في أوائل القرن السادس عشر مهيأة للدراسات الانسانية كبقية دول اوروبا . ولكن الخوف المشترك من بوادر حركة الاصلاح الدينى دفع شارل الخامس ملك اسبانيا والبابا كلمنت السابع الى عقد اتفاق في بولونا عام ١٥٣٠ م لمواجهتها . ومنذ ذلك الوقت أصبحت اسبانيا تقف في صف القوى المعادية للدراسات الانسانية ، فاعتمد المفكرون في اسبانيا على حماية ومناصرة بعض الامراء لمواجهة العداء العام من جانب رجال الدين ، ولهذا السبب لم يكن تأثير الحركة الانسانية عميقا في المجتمع الاسبانى بصفة عامة . كما أصبح أعداؤها ـ بعد اتفاق شارل وكلمنت اكثر نفوذا من اى وقت سابق ، فالجزويت الذين أصبحوا فيما بعد من دعاة الدراسة الكلاسيكية ـ كانوا من أشد خصوم هذه الدراسات في ذلك الوقت ، كما كانت محاكم التفتيش الاسبانية سيفا مسلطا على رقاب أصحاب هذه الدراسات .

فليس غريبا أن تزدهر دراسة اليونانية على يد فرانسيسكو سانشيز Francisco Sanchez (١٥٢٣ ـ ١٦٠١) الذى ألف في النحو كما ظهر أثر احياء العلوم والمعارف في اسبانيا في استخدام اللغة الاسبانية القومية في الكتابة ، فكتب ميشيل دى سيرفانتس Michel de Cervantes

(١٧٥٤ ــ ١٦١٦) قصته المشهوده دون كشوتة Don quizote التى نقد فيها مساوئ المجتمع فى عصره ٠ كما كتب لويس دى كاميونس Louis de Camoens (١٥٢٤ ــ ١٥٨٠) ملحمته الشهيرة لوزياد Lusiad كما كتب لوب دى ڤيجا Lope de Vega المعاصر لسرفانتيس عدة دراسات ٠

وتعتبر اسبانيا مسئولة عن تأخر الدراسات الانسانية فى الأراضى المنخفضة ، فقد كانت هذه جزءا من ممتلكات اسبانيا الرجعية ، ثم انها شغلت بالكفاح ضد فيليب الثانى ملك اسبانيا من أجل استقلالها السياسى وحركة الاصلاح الدينى فيها ٠ حتى جاء العالم الهولندى "إرازموس" ولعب دورا رئيسيا فى نشر الدراسات الانسانية بها وبدول أوروبية اخرى كما ذكرنا من قبل ٠

الفصل الثالث

خصائص النهضة الاوروبية

أولا ـ الخصائص الفكرية :

لاريب ان التحرر الفكري فى أوروبا كان من أهم ميزات العصر الحديث واعتبر ثورة على الجمود والتخلف الذى ساد الحياة الأوروبية خلال العصور الوسطى . لذلك كانت اهم ميزة لهذا العهد ان الفرد قد أصبح حرا فى ان يختار من العلوم وألوان الثقافة مايلائم طبيعته وتفكيره غير مقيد بتقاليد الكنيسة وتعاليم رجال الدين الجافة ، وهم الذين كانوا يسيطرون على العقول والاتجاهات الفكرية فى العصور الوسطى . وكان لهم تأثيرهم الواضح على الاذهان عندئذ ، لانهم كانوا الفئة الوحيدة المتعلمة الى جانب أقلية من الأستقراطية فى المجتمع .

وبذلك أصبح الفكر حرا يهدف الى الوصول الى الحقيقة ، ويعمل على توفير كل أسباب السعادة والحياة التى توفر الراحة للفرد ولم يعد التفكير فيما بعد الموت وأداء الواجبات الدينية هو الوحيد الذى يشغل الخواطر الانسانية ، ومن ثم ظهرت الحركة الشاملة والتى عرفت الحركة الانسانية .

هذه الحركة تزعمها جماعة يعرفون " بالانسانيين " ومن ذلك اللفظ نتبين أن الانسان كان موضع البحث والاهتمام . فلم تعد هناك حقائق خفية لايجب التعرض لها كما كان يوحى بذلك رجال الدين من قبل ،

وأصبحت المعرفة في حد ذاتها معرفة كل شيء ، التأكد من حقيقتها هـو الاتجاه الجديد ، وقد ترتب على ذلك ان هذه الحركة الانسانية اهتمت بالبحث عن تلك الحقائق في كنوز المعرفة القديمة الرومانية والاغريقية بصفة خاصة فاكتشفت المعلومات الحديثة التي كان يجهلها الغربيون من قبـــل ٠

وقد تأثر الأوروبيون باتصالهم بالعرب في الشرق أيام الحروب الصليبية وفي الغرب ايام حكم العرب في الاندلس ـ كما ذكرنا من قبل ـ تأثروا بما اطلعوا عليه من معلومات مختارة في الطب والجغرافيا والرياضـــة والجبر وما لمسوه من تقدم في بعض الصناعات مثل صناعة الورق والحريـــر والسكر ، كل هذه الاتصالات جعلتهم يؤمنون بضرورة جمع المخطوطـــات القديمة ودراستها ونقلها والتعليق عليهـا ٠

ولما كانت هذه المخطوطات مكتوبة باللغتين الاغريقية او اللاتينيـــة فقد عكف بعض الانسانيين على اتقان هاتين اللغتين وكانت اللاتينية معروفـة لدى الفئات المتعلمة فكانت هذه اللغة هي التي تكتب بها الابحاث العلميـــة والادبية .فازداد عدد المقبلين على تعلمها الى جانب اقبالهم على تعـلم اللغة الاغريقية حتى يستطيعوا تفسير ماجاء في الوثائق المكتوبة بها ٠ وعندما تم لهم ذلك أظهروا اهتماما كبيرا بلغاتهم القومية كالانجليزية والفرنسيـــة والايطالية والالمانية وغيرها ٠

وبالتدريج عمد بعض الكتاب والآدباء الى الكتابة بلغة قومهم ، كمـــا عمد بعضهم الى استخدام بعض كلمات وعبارات جديدة بالتدريج ٠ فأصبحت بالتالي ، اللغات الوليدة صالحة لتدريس العلوم والآداب بها ، بل أصبح

الاهتمام بهذه اللغات القومية مظهرا من مظاهر النزعة القومية وعاملا هاما يساعد على نشر الأفكار الجديدة التى أصبحت من مميزات عصر النهضة ففى ايطاليا كتب دانتى Dante شاعر ايطاليا المشهور كتابه (الكوميديا الالهية) باللغة الايطالية الجديدة . وكتب غيره من أدباء وكتاب فرنسا باللغة الفرنسية مثل مونتان Montaigne ، كما ظهر غيرهم فى مختلف البلاد الاوروبية ألفوا بلغاتهم القومية .

وهكذا بفضل انتشار هذه اللغات ومعرفة الشعوب لها وتفهمهم لما كتب بها أصبح فى مقدور عامة الشعب ان يتقبلوا الآراء والأفكار الجديدة ويشاركوا فيها .

ومما تميز به الفكر الحديث ظهور عدد كبير من المؤلفات الحديثة فى ميادين العلم والادب والفنون المختلفة ، وكان من حسن حظ هذه الحركة — اى الحركة الانسانية — أن ظهرت الطباعة أثناء انتشارها . بالإضافة الى تواجد طائفة من العلماء الباحثين المدققين المتحمسين للبحث عن كل ما هو قديم .

ظهرت الطباعة أولا فى المانيا حوالى منتصف القرن الخامس عشر وانتقلت منها الى أنحاء أوروبا ، فساعدت على ظهور المؤلفات والأبحاث التى قام بها " الإنسانيون " فى كل الميادين ، مما سهل انتشارها ورواجها ، فشاهدت العصور الحديثة إنتاجا علميا وأدبيا وفنيا لم تشاهده أوروبا من قبل منذ نهضة الاغريق فى عصر "بركليز" فى القرن الخامس قبل الميلاد .

ثانيا ــ الخصائص الاقتصادية وانهيار نظام الإقطاع :

إمتاز عصر النهضة بنمو الحركة الاقتصادية، واتساع نطاق التجارة بين الدول الاوروبية المختلفة ... الأمر الذى أدى الى حركة الكشوف الجغرافية التى تمت منذ أواخر القرن الخامس عشر ، وكانت نتيجة ذلك تغيير كبير فى النظم الاقتصادية الاوروبية فبعد ان كان الاقتصاد الاوروبى اقتصادا زراعيا راكدا ، أصبح اقتصادا ذا طابع تجارى ـ زراعى ، وبدأت الصناعة بالتالى ، تنمو ، مما ساعد على نمو المدن الجديدة . كما ان نمو الصناعة المتخصصة اقتضى وجود عمال متخصصين ، فازدحمت المدن بالسكان وتحولت الى أسواق رائجة لتصريف السلع الصناعية ، حيث ان مهنة الصناعة فى ذلك العصر لم تكن منفصلة عن التجارة ، فصاحب الحرفة الى جانب كونه صانعا ، فهو فى نفس الوقت تاجرا . وقد جذب ازدهار الصناعة فى المدن عددا كبيرا من أهل الريف المشتغلين بالفلاحة ، حيث أحس الفرد انه فى هذا المجتمع الجديد يستطيع ان يعيش حرا دون ان يخضع للعبودية التى كان يخضع لها فى ضيعة الاقطاعى ، ولذا ازدادت الهجرة من الريف الى المدينة حتى اندثرت قرى بأكملها ، وكان ذلك على حساب النظام الاقطاعى الزراعى ، مما كان نذيرا بانهيار هذا النظام . وتشجيع الفلاحون على القيام بالثورات واحراق قصور الاقطاعيين وسجلات الضرائب وغدا الفلاح سيد أرضه التى يستثمرها بعد ان حصل على جزء من حريته ، حيث ان المدن اخذت تنمى شخصيتها وتزيد من ثرواتها ، فقد اشتغل سكانها بالتجارة والصناعة ، مما أدى الى ظهور طبقة جديدة هى " الطبقة المتوسطة " التى سكنت المدن واشتغلت بالصناعة والتجارة . وأصبح لها نفوذها السياسى ، وبذلك أصبحت المدينة مركز الاجتماعات والانشطة المختلفة

وهو المركز الذى كانت تحتله قلعة الاقطاعى فى العصور الوسطى ٠

وارتبطت الثورة التجارية بحركة معاصرة أخرى ، وهى انتشار الرأسمالية والتى ظهرت فى الوجود كنظام اقتصادى حين أصبح فى إمكان فرد واحد او مجموعة من الافراد ان يستغلوا مدخراتهم فى عمليات تجارية او صناعية بقصد الحصول على الربح ، ثم تطورت الرأسمالية حين زاد الانتاج والتوزيع الى درجة تطلبت زيادة متناسبة فى رأس المال المستثمر ٠

ونمت العمليات الرأسمالية نموا سريعا ، فقبل عصر الكشوف الجغرافية مباشرة بلغت موارد اكبر الشركات التجارية والمصرفية حوالى ثمانية ملايين دولار ولكن فى اوائل القرن السادس عشر أنشئت بنوك بروءوس أموال اكبر ، فمثلا بنك فوجرز Fuggers فى أوجز برج بجنوب المانيا بدأ عمله برأس مال يقدر بأربعة مليون دولار ، ثم اخذت عملياته المالية تتسع اتساعا كبيرا ، وأصبح لبنك " فوجرز " من النفوذ والسلطات مالم يتمتع به اى بنك من قبل ، ولم يكن فى وسع الدول القيام بأى حرب دون مساعدة من هذا البنك ٠

وفى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر حدث تطور فى شكل الشركات التجارية ٠ فالشركات القديمة كانت عبارة عن شركاء من أسر واحدة وكانت معرضة دائما للتفكك نتيجة لوفاة الشركاء او لانسحابهم ، فكانت تفتقر دائما الى الضمان والاستقرار الذى يسعى اليه رأس المال ـ فحلت الشركة المساهمة محل " الشركة الأسرية " ، وهذه تقوم على أسهم تباع وتشترى فى السوق الحرة لها ميزة مزدوجة ، ذلك من ناحية أنها تضمن استمرار عملها دون توقف ، وان تسلم أمورها الى مدير موهوب مسئول امام مجلس إدارتها ٠ وبعد عام ١٦٠٠ كانت كل الشركات الكبيرة

مثل شركة " الهند الشرقية الانجليزية " وشركة " الهند الشرقية الهولندية" عبارة عن شركات مساهمة . وتبادل الأسهم خلقه ذلك النظام الحديث الذى يطلق عليه سوق الأوراق المالية .

وفى النصف الأول من القرن السابع عشر كان من الواضح ان الهولنديون والانجليز ويليهم الفرنسيون هم الذين يستفيدون فائدة كاملة من التيارات الاقتصادية الجديدة . اما الدول اللاتينية :ايطاليا واسبانيا والبرتغال فقد تخلفت عن : هذا الركب بسبب انتقال مراكز التجارة والمال الى الغرب كما تخلفت المانيا بسبب الصراع الداخلى العنيف وماصحبه من خراب ابان حرب الثلاثين عام .

وما يجب الاشارة اليه ان المدن فى العصور الوسطى كانت تتولى الاشراف على الحياة الاقتصادية المحدودة ، كما كانت النقابات تتحكم فى الصناعة والتجارة اذ كان كل فرد فى العصور الوسطى ينتمى الى نقابة أوطائفة سواء كان طبيبا او تاجرا او صانعا . وبازدياد التخصصات المختلفة فى الصناعة والتجارة ، ازداد عدد النقابات والطوائف وبخاصة فى المدن ، بحيث شملت جميع المهن الصناعات والحرف . وكانت كل نقابة أو طائفة تفرض على العضو الذى ينتمى اليها قيودا ثقيلة فى اتصاله بالمجتمع ، بل وفى نظام معيشته وملبسه وأسلوبه فى العمل . وكان هذا النظام صارما ، ولم يكن فى مقدور العضو ان يتحلل منه ، بل أصبح بمثابة آلة تسير وتتحرك داخل نطاق القيود المفروضة عليه .

غير انه بنمو الصناعة وازدهار التجارة واقبال الرأسماليين الجدد على

العمل خارج نظم الطوائف المعقدة ونجاح عملياتهم الاقتصادية سـواء التجارية او المصرفية ، أفقد الطائفة احتكارها لذلك النوع المعين من الصناعة او التجارة الذى تحتكره ، فانتشر بذلك " العقد الحر " وساعد هذا الانتشار بدوره على شل الطوائف وانهيارها ، وأصبح الفرد يمارس نشاطه المهنى او الصناعى او التجارى حرا من كل قيد ·

ثالثـا ـ الخصائص السياسية :

كانت أوروبا تتمتع فى العصور الوسطى بوحدة سياسية شاملة ، على رأسها امبراطور " الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة " ولم تكن فكرة الدولة والأمة بالمعنى الذى نفهمه بها الآن ، مفهومة فى العصور الوسطى فعلماء النظريات السياسية فى العصور الوسطى كانوا يؤمنون ان المسيحية تكون دولة واحدة يحكمها البابا والامبراطور فيما بينهما بتفويض من اللـه تعالى ، الاول فى الشئون الدينية ، والثانى فى الشئون الدينوية ولـذا فانه يجب على كل الملوك طاعتهما ·

ولم يكن هناك اى تفكير حول نظام حكومى أفضل من هذا النظام الشمولى حتى كانت فترة الانتقال هذه ، حيث بدأ التفكير فى النظم الحكومية ، ومهمة الحكومة تبلورت فى النظرية التى تقول بأن مهمة أى حكومة هى السهر على مصالح الأمة ، وكان هذا التفكير بداية ما نطلق عليه الآن بالعلوم السياسية ، وكان الرائد فى هذا الميدان هو نيقولا مكيافيللى Nicolas Machiavelli (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) م القاضى والمؤرخ والدبلوماسى الايطالى الذى وضع كتابه الشهير " الامير "

بعد ان تدرج فى عدة وظائف ، وندب لمهمات سياسية فى أقاليم ايطاليا المختلفة وفى الخارج فحصل على ثقافة تاريخية وسياسية واسعة ، وآمن ان القوة وحدها هى التى تعيد لايطاليا وحدتها ، ولذا وضع هذا الكتاب الذى درسه كل من شغلته السياسية ، كما انتفع به كثير من ساسة العالم لما فيه من شرح مستفيض لاصول الحكم وفن السياسة ،(١) وطرح لقواعد العصور الوسطى . لذا فان ملوك اوروبا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ساروا على نسقه .

ثم خلف مكيافللى سيرتوماس مور Sir Thomas More ابن البرجوازية البريطانية وصديق إرازموس Erasmus الذى ألف كتابه يوتوبيا Utopia والذى نشر عام ١٥١٦ م . وقد طرح فيه وبطريقة غير مباشرة آراءه الاقتصادية والدينية والسياسية ، واقتبس فكرته من جمهورية

---

(١) خلاصة كتاب " الأمير " ان القوانين الخلقية وضعت ليسير على مقتضاها الأفراد ولكنها لاتدخل فى سياسة الدول ، بل يجوز لمن يريد تكوين دولة قوية ان يلجأ الى الرذيلة والجريمة القسوة والخداع ، ومن أقواله فى ذلك : " ان الأمير الذى يريد حفظ كيان دولته ، لابد له فى كثير من الأحيان ان يخالف الذمة والمروءة والانسانية والدين " . ويلاحظ ان مكيافللى لايعبر عن أخلاقه الشخصية ولا مشاعره الخاصة ، وانما يقدم النصيحة لمن يريد النجاح فى السياسة ، ولذا فانه رأى ان الأمير الذى يريد ان يبنى دولته عليه ان يتحرر فى أحكامه وأعماله من الخضوع للقوانين الاخلاقية وتعاليمها ، فالسياسة لاتخضع لمقاييس الاخلاق . ولذا وجب الفصل بين السياسة والاخلاق ، فالمصلحة العليا للدولة والأمة فوق كل الاعتبارات .

أفلاطون بقصد اظهار المساوئ المنتشرة فى عصره ونقدها ، مع مقارنتها بالمثل العليا التى هداه تفكيره اليها .

وهكذا ظهرت فى فترة الانتقال نظريات سياسية جديدة ، قادت الى انهيار النظريات السياسية التى كانت سائدة فى العصور الوسطى ، وبخاصة انه لم يأت القرن الخامس عشر ، الا وكانت بعض الدول الاوروبية قد اكتملت لها شخصية الأمم الحديثة ، وبدت واضحة بكيانها القوى المستقل مثل انجلترا وفرنسا واسبانيا ، وبهذا تميزت فترة الانتقال بوضوح الفكر السياسى ، وقيام الأمم الحديثة ، وهذا مالم يكن معروفاً من قبل .

رابعاً — الخصائص الدينية :

اجتاحت الثورة الدينية دول أوروبا المختلفة عند مطلع العصور الحديثة ، وكان لها نتائجها الهامة فى تقرير مصير اوروبا الدينى . فقد ساد المذهب الكاثوليكى كل غرب أوروبا فى القرن الخامس عشر ، وعلى أثر وقوع حركة الثورة الدينية وماترتب عليها من حروب داخلية انقسمت أوروبا الى دول كاثوليكية وأخرى بروتستنتية . كما ظهرت أنواع جديدة من المذاهب البرسبتارية مثل " الكنيسة الانجليكانية " فى انجلترا " والبرسبتارية " فى اسكتلنده بينما بقيت الدول العظمى مثل فرنسا واسبانيا والنمسا وايطاليا على كاثوليكيتها . ولم تكن الثورة الدينية عندئذ هى اول بادرة من بوادر الخروج على الكنيسة الكاثوليكية ، فقد وقعت قبل ذلك حركات تمرد ضد الكنيسة الكاثوليكية ، ولكن هذه الحركات لم تتعرض للعقيدة نفسها ولم تهاجم البابوية ورجال الدين مثل ذلك الهجوم الذى حدث عند مطلع العصور الحديثة .

فهناك حركة جون ويكلف John Wycliff فى انجلترا فى القرن الرابع عشر التى قضى عليها بسرعة ، ثم ظهرت حركة هس Hess فى بوهيميا الذى اخفق وأحرق علنا باعتباره خارجا على الكنيسة . وظهرت كذلك عدة مجالس أرادت ان تُصلح من شأن الكنيسة الكاثوليكية ولكنها حوربت من جانب البابوية وقُضى عليها دون ان تصل الى نتائج .

وعلى أى الأحوال كان تغير طابع النهضة فى كل دولة اوروبية دلالة على نضوج الشعور القومى ذلك الشعور الذى أخذ يتطور ليضع أوروبا ، بعد اكتمال بعض جوانب النهضة، على باب التصارع الداخلى فى صدامات الاصلاح الدينى والصراع الخارجى فى شكل الحلقة الاستعمارية الاولى المعروفة بحركة الكشوف الجغرافية . ومن المهم بمكان ان نتعرف على الدول المختلفة التى تكونت فى اوروبا قبل الحديث عن حركة الكشوف الجغرافية .

الفصل الرابع

أوروبا فى القرن السادس عشر

أولا ـ تكوين أوربا فى بداية القرن السادس عشر :

عند ما استقرت الأمور فى أوربا بعد غزوة القبائل الجرمانية المتبربرة فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين نشطت التجارة فى المدن المتبقية من العهد الرومانى ثم زاد هذا النشاط عندما اتصل الغرب بالشرق ثانية فى القرن الحادى عشر فى أعقاب الحروب الصليبية ، فجاءت متاجر الشرق خصوصا تجارة التوابل الى أوربا اما بطريق آسيا وروسيا وبحر البلطيق واما بطريق بحر الخرز والانهار الروسية ، واما بطريق البحر المتوسط، وكان طريق البحر المتوسط أهمها جميعا فكان البنادقة (أهل البندقية) ينقلون المتاجر الشرقية من موانئ البحر المتوسط الشرقى الى المدن الايطالية الشمالية ، ومن هذه كانت تنتقل المتاجر الى أوربا عبر جبال الألب الى وسط ألمانيا أو الى شمالها ثم الى الاراضى المنخفضة الهولندية مستخدمة نهر الرون ، وكانت حروب المائة سنة من ١٣٣٨ ـ ١٤٥٢ م قد أغلقت هذا الطريق مدة طويلة .

وفى العصور الوسطى كان للطريق التجارى عبر جبال الألب أهمية عظيمة لأنه مكن من نمو تجارة التوابل) بين منتجات الشرق وأهمها التوابل والحرير) وبين منتجات اوربا الشمالية وهى الخشب والقار والقنب والعسل والشعير والأقمشة ، كما أنه أفاد اكثرية المدن الواقعة على هذا الطريق

" بسبب النشاط التجارى " اذ سرعان ما نشأت بهذه المدن الصناعات لتحويل المواد الخام التى دخلت اليها إلى سلع صالحة للاستعمال وكذلك صارت مهمة هذه الصناعات تغذيه حركة المبادلة التجارية نفسها المنتشرة على طول الطريق بما تحتاج اليه من سلع وأدوات فظهرت نتيجة لذلك كله عدة صناعات من أهمها صناعة تحضير وتصدير الاسماك، وصناعة نسج الأقمشة الصوفية ، وفى هذه الصناعة الأخيرة كانت المنافسة شديدة بين انجلترا وهولندا فى القرن الخامس عشر، ثم كانت هناك صناعة بناء السفن خصوصا فى هولندا وموانئ بحر البلطيق ثم صناعة الحرائر والاقمشة فى ايطاليا الشمالية وهذا عدا الصناعات المحلية الصغيرة التى نشأت فى مختلف المدن الواقعة على طول هذا الطريق التجارى نفسه .

وقد نتج عن ذلك أن ظهرت فى اوربا عند طرفى هذا الطريق التجارى وجبال الالب منطقتان رئيسيتان للصناعة احداهما تقع فى الجانب الشمالى الغربى من اوربا وتشمل الاراضى المنخفضة وبلاد البلطيق والمانيا فى الاقاليم الواقعة منها عند مصبات نهر الالب والاودر والراين ، ثم كانت المنطقة الاخرى فى ايطاليا الشمالية .. وبين هاتين المنطقتين قامت مراكز صناعية عديدة على طول الطريق فى وسط اوربا فى أجزبرج وأولم وكولونيا وليون وغيرهما . ولذلك صار هذا الطريق يعرف باسم السلسلة الفقرية الاقتصادية لاوربا وكان لوجود هذه السلسلة الفقرية الاقتصادية أثر كبير فى نشأة وظهور الدولة الحديثة والسبب فى ذلك أنه بقيام الصناعات وانتشار التجارة حول هذه السلسلة الفقرية الاقتصادية ظهرت طبقة جديدة وقع على كاهلها عبء هذا النشاط الصناعى والتجارى ثم انها استفادت منه؛ هى الطبقة المتوسطة ، كما حدث فى انجلترا وفرنسا والاراضى المنخفضة النرلندية وهولندا ، وكان التجار يؤلفون جزءا هاما من هذه

الطبقة التى لم تلبث أن أحرزت السيطرة فى المجتمع بفضل تركيز النشاط الاقتصادى فى يدهـا .

ولما كانت الصناعة والتجارة هما مصدر الثروة والقوة اللتين صارت تتمتع بهما هذه الطبقة المتوسطة فقد زالت الاهمية التى كانت للأراض فى العصور الوسطى كمصدر منفرد للثروة والقوة والتى يقوم على امتلاكها والاستحواذ عليها تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى المجتمع على نحو ما كان عليه الحال فى العهد الاقطاعى فى اوربا ، ومن هذا الوقت صارت الأرض شأنها شأن أى سلعة أخرى، فلا تقدر قيمتها الا بما يمكن أن يعود على صاحبها من ربح عند استغلالها ، وكان لهذا القول آثار ونتائج هامة تتلخص فى زوال طبقة رقيق الارض الذين أصبحوا الآن عمال أجراء ، ثم زوال الاقطاع الاوربى فى جملته من جهة وظهور الدولة الوطنية الحديثة من جهة أخرى ، ولقد قامت الطبقة المتوسطة بدور كبير فى نشأة وظهور الدولة الوطنية الحديثة ذلك أنه بمجرد زوال الاقطاع الاوروبى ساعدت الاعتبارات الجغرافية ثم اتفاق أهل الإقليم الواحد فى اللغة والجنس والى حد ما فى الدين كذلك ساعدت على تقسيم أوربا الى مجموعات من الأمم .

كانت الطبقة المتوسطة هى قوام النشاط الاقتصادى التجارى فى كل أمة ، ولم يلبث أن أدى الاحساس بالمصلحة المشتركة الى جانب الاتفاق فى اللغة والجنس والدين الى ظهور ونمو الشعور القومى وأدى هذا الشعور القومى نفسه الى زيادة التماسك بين أفراد الطبقة المتوسطة فى الأمة الواحدة ثم الى أن تتميز كل طبقة متوسطة عن زميلتها فى الأمم الاخرى ما تسبب عنه أن اشتد الاعتزاز بالقومية فى هذه الامم الجديدة ، ولما

كانت الطبقة المتوسطة وعمادها التجار هى المتفوقة على غيرها من الطبقات الاخرى للاسباب التى ذكرناها فقد وجدت من الواجب عليها حتى تتمكن من خدمة مصالحها أن تعمل من أجل الاستئثار بكل قوة وسلطة فى داخل الأمة ثم ما لبثت حتى وجدت أن الوسيلة لتحقيق ذلك هى إنشاء الحكومة المركزية القوية التى تستطيع وحدها تنشيط التجارة الوطنية بفتح الاسواق الجديدة لتصريف المتاجر وحماية المعاملات التجارية وتنظيم شئون القضاء والمحافظة على الأمن واعداد الجيوش للدفاع عن سلامة البلاد .

وحيث أن الطبقة المتوسطة لها من ثرائها وغناها مايجعل الحكومة المركزية فى حاجة مستمرة لمعونتها المالية حتى تستطيع تأدية واجبها على الوجه الأكمل فقد صارت الطبقة المتوسطة لاتخشى من وجود الحكومة المركزية بل على العكس من ذلك فانها كانت مطمئنة الى انه فى امكانها فرض سيطرتها وسلطتها على هذه الحكومة مادامت تمدها بالاموال اللازمة لنفقاتها ، وأما نوع الحكومة التى فضلته على غيره هذه الطبقة المتوسطة ، وكان مثلها الأعلى فى نظم الحكم فهو الجمهورية التى يدير شئونها قلائل من الاثرياء . ومع هذا فقد رضيت الطبقة المتوسطة بالتنازل عن هذا المثل الاعلى ورغبت فى إقامة نوع آخر من الحكومة هو الملكية المطلقة وأسست الطبقة المتوسطة رغبتها فى ذلك على عدة عوامل من أهمها أن هذه الطبقة على الرغم من غناها وثروتها كانت لاتزال تشعر بضعفها أمام النبلاء القدماء الذين اغتصبت الطبقة المتوسطة حقوقهم . فهى لذلك تريد نظاما حكوميا يكفل مواصلة النضال ضد هؤلاء النبلاء بنجاح وكانت تشعر أنها لازالت فى دور الانتقال ولاتستطيع إنشاء الجمهورية التى تريدها وهى مثلها الاعلى فصارت لاترى غضاضة فى أن يتنازل الأفراد عن حرياتهم ويقبلوا الخضوع لسلطان ملك مطلق

فى نظير أن يسهر هذا الملك المطلق على مصالحهم وذلك هو الأهم على شريطة أن يخضع هذا الملك المطلق بدوره لنفوذ أولئك الذين يتكلفون بنفقات الحكم الطائلة ، وكان هذا الشرط الاخير لدى الطبقة المتوسطة شرطا أساسيا حتى أنهم اعتبروا أنفسهم محررين من تأييد النظام الملكى المطلق اذا رفض الملك الخضوع لسلطانهم .

ولكن هذه الملكية المطلقة التى اعتمدت فى مبدأ الأمر على الطبقة المتوسطة فى القضاء على سلطان النبلاء وعلى العناصر الاخرى المناوئة لها واخماد كل حركة قد ينجم عنها انقسامات داخلية لم تلبث أن أصبحت منيعة الجانب وأصبح الخضوع لها من مقتضيات الوطنية وأمر لامناص من التسليم به ، بل بلغ تطرف الملوك فى هذا النظام حدا جعلهم يعتبرون أنفسهم أنهم يمثلون الإله على الأرض ويستمدون سلطانهم من الإله نفسه وهذا مايعرف باسم حق الملوك المقدس فى الحكم وأصبح فى استطاعتهم الى جانب هذا كله أن يقضوا على الرجال الذين يرتفع شأنهم ولو كان هؤلاء من رجال الطبقة المتوسطة ذاتها ، وفى بداية العصور الحديثة فى القرن السادس عشر كانت الدولة الوطنية اذن ذات النظام الملكى المطلق والوراثى هى الوحدة السياسية فى التكوين الاوربى الحديث .

ثانيا ــ نشأة الدولة الحديثة :

عندما حاولت الطبقة المتوسطة إنشاء الملكية المطلقة فى الدولة الوطنية الحديثة كان قد طرأ تغيير على تكوين أوربا الاقتصادى ترتبت عليه آثار كبيرة ليس فقط من ناحية توزيع القوى بين الدول الوطنية الحديثة

فى داخل القارة الاوروبية ذاتها بل ومن ناحية التمهيد لانتشار الثقافة والسيطرة الاوربيتين خارج القارة وامتدادهما لأغلب بقاع العالم، هذا التغيير نجم عن انتقال السلسلة الفقرية الاقتصادية التى سبق الكلام عنها انتقالا تدريجيا الى الجهة الغربية فانتقلت بسبب ذلك مراكز التجارة فى المنطقة الشمالية الغربية الصناعية فى اوربا من بحر البلطيق الى الاراضى المنخفضة، ولهذا الانتقال أسباب منها أن المنطقة التى تتوالد فيها الاسماك من نوع Herring، (الرنجة) انتقلت حوالى سنة ١٤٥٠ من بحر البلطيق الى بحر الشمال من غير سبب معروف، كما أن الطريق التجارى عبر جبال الألب من ايطاليا الى فرنسا بواسطة نهر الرون وهو الطريق التى اغلقته حروب المائة سنة سرعان ما أعيد فتحه بعد انتهاء هذه الحروب سنة ١٤٥٣ .

زيادة على ذلك فقد حدثت خلال القرن الخامس عشر أيضا حركة الاستكشافات الجغرافية فقام الرحالون بأسفارهم من الموانىء الاوربية الغربية متجهين فى سيرهم شرقا حول افريقيا أو غربا فى البحار المجهولة من أجل الوصول الى الهند فكان لذلك أثر ظاهر فى سرعة انتقال الطرق التجارية الى الجزء الغربى من اوربا. وأما انتقال السلسلة الفقرية الاقتصادية الى الغرب فقد أثر فى مدى تقدم أو تأخر الدولة الوطنية الحديثة حيث صار يتوقف رقى هذه الدولة أو تأخرها على مبلغ قربها أو بعدها من السلسلة الفقرية الاقتصادية وعلى ذلك فقد كانت الأمم القريبة منها فى بداية العصور الحديثة هى الأمم الموحدة اى التى لها نظام ملكى مركزى ويأتى بعدها اذا ابتعدنا قليلا الأمم الشبيهة بالموحدة وهى ذات مميزات خاصة بها وان كانت تدخل مع ذلك ضمن المجموعة الاولى ثم يلى ذلك

الأمم غير الموحدة وهى التى انعدم فيها اطلاقا وجود الملكية المركزية وأما فى الجهات البعيدة فى أوربا الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية فكانت هناك بلدان تسير بخطى بطيئة فى طريق التقدم والحياة الجديدة ٠

أ ــ فى أوربا الغربية :

١ ــ الأمم الموحدة :

انجلترا : يمتاز تاريخ انجلترا منذ الفتح النورماندى سنة ١٠٦٦ بقيام النظام الملكى المركزى الذى تدعمت أركانه خصوصا منذ أن جعل الملوك بعد حروب المائة سنة جهودهم مقصورة على انجلترا ذاتها ، كما يمتاز تاريخها باجتماع كلمة البارونات أو النبلاء ورجال الدين وفيما بعد الطبقة العامة كذلك على تقييد الملكية وهذا منذ صدور العهد الاعظم " الماجنا كرتا " سنة ١٢١٥ م أساس الدستور الانجليزى وأقدم العهود التى دونت بها قبل كل شيء حقوق وامتيازات البارونات ثم الكنيسة وأخيرا العامة ، الى أن تم الاعتراف بحقوق الشعب الانجليزى فى آخر القرن الثالث عشر واستمرت هذه الحقوق تزداد تأييدا فى العصور التالية وعندما وقعت الحروب المعروفة باسم حروب الوردتين من سنة ١٤٥٥ ، الى سنة ١٤٨٥ م " الوردة البيضاء رمز أسرة يورك والوردة الحمراء رمز أسرة لانكستر " من أجل المنافسة على الحكم تطلع الجميع الى ضرورة إنهاء الفوضى التى أحدثتها هذه الحروب الاهلية فأسس هنرى تيودور السابع من سنة ١٤٨٥ الى سنة ١٥٠٩ ملكية التيودور القوية المركزية وبذلك كانت انجلترا لها حكومة مركزية قوية فى بداية العصور الحديثة ٠

فرنسا : يبدأ تاريخ فرنسا عند تقسيم إمبراطورية شارلمان في معاهدة فردان سنة ٨٤٣. وفي سنة ٩٨٧ آل الحكم الى أسرة كابيه التي اتخذت باريس قاعدة يعمل فيها ملوك هذه الاسرة لتوحيد المملكة وبسط السلطة المركزية في أنحاء البلاد وناضلت هذه الاسرة ضد طبقة النبلاء يؤيدوها في هذا النضال الطبقة المتوسطة وعندما انتقل جزء من الأراضي الفرنسية الى ملوك انجلترا بطريق الزواج أو الوراثة في القرن الثاني عشر صار واجب الملكية الفرنسية أن تنتزع هذه الاراضي الفرنسية من أيدي الملوك الانجليز وهذا الى جانب توحيد المملكة وتركيز السلطة في باريس التي ارتفع شأنها كعاصمة للمملكة الجديدة.

وفي عهد الأسرة التالية في الحكم وهي أسرة ڤالوا منذ سنة ١٣٨٢ دخلت الملكية في فرنسا في حروب المائة سنة الطويلة مع انجلترا، وعند إنتهاء هذه الحروب في سنة ١٤٥٣ كان الانجليز قد فقدوا كل ممتلكاتهم في فرنسا ماعدا كاليه، وفي آخر القرن الخامس عشر ضم ملوك اسرة ڤالوا دوقيه برجنديا ودوقية بريتاني ثم إقليم أورليان وذلك في عهد لويس الحادي عشر وشارل الثامن ولويس الثاني عشر أي بين سنتي ١٤٧١، ١٥٩٥، وهكذا في بداية العصور الحديثة كان قد تم توحيد فرنسا على أساس قيام الحكومة الملكية ذات السلطة المركزية الثابتة بها.

اسبانيا والبرتغال : يبدأ تاريخ اسبانيا المسيحية بزوال الوجود العربي منها في القرن الثامن الميلادي، وكان تأسيس اول دولة مسيحية في اقليم استورياس ثم إتسعت حدودها في القرن التاسع وسميت مملكة ليون وفي القرن العاشر استقلت قشتالة كدولة مسيحية جديدة ثم ظهرت

فى شمال مملكة نافار ، وفى القرن الحادى عشر انضمت ليون الـــى قشتالة وتولت مملكة قشتالة أمر النضال مع المغاربة المسلمين ثم نشـــأ النزاع بينها وبين مملكة ارغونة أو أرجون Aragon واستمر عامـــل النزاع بينهما مدة حتى اتحدت أرغونة وقشتالة عند زواج ايزابلا صاحبـــة قشتالة من فردناند الثانى ملك ارغونة سنة ١٤٦٩ م فكان هذا الزواج الأساس الذى قامت عليه وحدة اسبانيا ، وفى السنوات التالية قويـــت الملكية فى اسبانيا على حساب الأمراء والنبلاء ورجال الدين ثم انتهـزت فرصة إدخال محاكم التفتيش الى اسبانيا سنة ١٤٨١ فاستخدمتها فـــى القضاء على اليهود وعلى المغاربة ، وعندما سقطت غرناطة آخر معاقـــل المسلمين فى أيدى الملوك الكاثوليك سنة ١٤٩٢ م تم توحيد اسبانيـــا على أساس الملكية المطلقة ذات الحكومة المركزية الموحدة ، وأخيرا تمكـن الملوك من السيطرة على مجالس الشورى المعروفة باسم "الكورتيز" فى كل مـن قشتالة وأرغونـــة .

أما البرتغال فكانت فى مبدأ الأمر واحدة من الامارات الـــتى خضعت لقشتالة ثم استطاعت فى بداية القرن الحادى عشر أن تتحرر مـن سيطرة قشتالة عليها ثم تخلصت نهائيا من سيادة قشتالة على يـــد الفونسو الاول من أسرة برجاندى التى حكمت بين سنتي ١٠٩٧، ١٣٨٣. وفى عهد ألفونسو الأول هذا تمكنت مملكة البرتغال الجديدة من طـرد المغاربة من لشبونة سنة ١١٤٧ ، وفى عهد الفونسو الثالث طردتهم أيضا من بلاد الغرب أى الجزء الجنوبى من البرتغال عام ١١٥١ م ، وفى بداية العصور الحديثة كانت اسرة أفيز Avis الجديدة قد استطاعـــت أن تدعم حقوق الملكية وعلى الخصوص فى علاقتها مع الكنيسة ورجال الدين

فى البرتغال ، وفى بداية القرن الخامس عشر اخذت البرتغال تؤسس لنفسها امبراطورية بحرية كبيرة .

٢ ـ الأمم الشبيهة بالوحدة :

الأراضى المنخفضة النرلندية :

فى القرن الخامس عشر كانت أملاك شارل الجسور دوق برجنديا من سنة ١٤٦٧ الى سنة ١٤٧٧ م تشمل بلجيكا الحالية والاراضى المنخفضة فى الشمال ثم جزءا صغيرا من فرنسا الشرقية و من ألمانيا الغربية ، وأراد شارل الجسور تأسيس مملكة ذات سلطة قوية وأنظمة مالية واقتصادية موحدة ولكن أصابه الفشل لان هذه الممتلكات كانت تختلف بعضها عن بعض فى الجنس واللغة . ثم ثارت ضد هذه الرغبة المدن الكبيرة فى الشمال مثل غنت Ghent ولأن أمراء أو أدواق برجنديا أنفسهم كانوا أجانب عن البلاد التى ارادوا أن يربطوها فى الشمال ، وهى الاراضى المنخفضة النرلندية بالاراضى التى آلت اليهم بحكم الوراثة فى الجنوب وهى برجنديا فنشأ من ذلك حروب ذهب ضحيتها شارل الجسور نفسه فى موقعة نانسى سنة ١٤٧٧ م .

وعندما تزوجت ابنته مارى من مكسمليان من أسرة هابسبرج الالمانية والذى أصبح امبراطورا على الامبراطورية الرومانية المقدسة من سنة ١٤٩٣ الى سنة ١٥١٩ م سيطرت المصلحة الاجنبية فى الاراضى المنخفضة ومع هذا فقد شهدت البلاد قدرا من التركيز عندما نجم عن النشاط التجارى الكبير فى المدن الشمالية مثل "بروج" ومثل "غنت" أن استطاعت مدينة

"أنتورب" أن تستأثر بمركز ممتاز كمقر للنشاط التجارى فى شمال أوربا الغربى وأصبحت تدريجيا بمثابة العاصمة للاراضى المنخفضة. ثم عمل الامير مكسمليان على تأييد مصالح هذه المدينة الغنية مثله فى ذلك مثل بقية الأمراء فى عصره دون مصالح المدن الاخرى، وقد سار على هذه الطريقة أيضا فيليب ابن مكسمليان ومارى فكانت اذن أنتورب فى ١٤٩٤ م أى فى بداية العصور الحديثة احدى مدن العالم العظيمة ومقر تجارة الاراضى المنخفضة بأجمعها، ويعطى وجودها بالاراضى المنخفضة التزلندية مظهر الدولة الوطنية الحديثة .

سويسرا : كانت سويسرا أصلا من ممتلكات الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وفى آخر القرن الثالث عشر اتحدت المقاطعات الشمالية والمدن الهامة للتخلص من ادعاءات او حقوق اسرة الهابسبرج النمساوية عليها ثم بعد ذلك لمهاجمة أملاك هذه الاسرة ذاتها وانتصر الاتحاد على الهابسبرج فى موقعة مورجاتن سنة ١٣١٥ م فشجع الانتصار بقية المقاطعات لتنضم الى الاتحاد وعندما انهزم النمساويون بعد ذلك فى موقعة سمباخ سنة ١٣٨٦ م اعترف النمساويون باستقلال ثمانية من هذه المقاطعات ولكن البلاد انقسمت الى قسمين : ريفى يتألف من المقاطعات التى اعتمدت فى حياتها على نقل المتاجر وامداد اوروبا بالجنود المرتزقة ، ومن هذه مقاطعة "لوسرن" ثم قسم حضرى يتألف من المقاطعات التى بها مدن كبيرة وكانت تهتم بالتجارة والصناعة مثل زيورخ وبال وبرن ، ومع أن هذا الانقسام أدى الى وقوع المنازعات الداخلية الا ان المصلحة المشتركة لم تلبث أن ربطت بين هذه المقاطعات عندما كان ضروريا أن تعنى جميعها ببقاء طرق المواصلات مفتوحة

دائما لوقوع المقاطعات فى شمال ايطاليا ، وعلى الطريق التجـــارى الرئيسى فى اوروبا ، وبالفعل استطاع السويسريون أن يجمعوا كلمتهـــم وأن ينبذوا سيادة الامبراطورية عليهم فى آخر القرن الخامس عشر بعـــد حروب صغيرة خرجوا منها وقد تدعمت حقوقهم فظلوا دولة مستقلة ومنفصلة عن الامبراطورية الرومانية المقدسة من ذلك الحين الى أن حصلوا علـــى الاعتراف بهذا الاستقلال رسميا فى صلح وستفاليا سنة ١٦٤٨ م٠

٣ ــ الأمـــم غير الموحدة :

فشلت فى أوروبا الغربية كل من ايطاليا والمانيا فى اقامة حكومـــة مركزية قوية فبقيتا فى بداية العصور الحديثة أمما غير موحدة ، وتختلـــــف أسباب الفشل فى كل واحدة منهما عنه فى الاخرى ٠

ايطاليـــــا :

فى ايطاليا بكرت النهضة بالظهور لأن شبه الجزيرة استفادت فائدة كبيرة من وقوعها على الطريق التجارى بين الشرق والغرب فعمل ذلك على نمو هذه البلاد السريع لدرجة أن أصبحت كل مدينة كبيرة فى بداية القرن السادس عشر بمثابة أمة صغيرة ذات حكومة داخلية وعلاقـــــات خارجية مرسومة وبها مصالح معروفة ، وقد ساعد على هذا النمو السريـــع عدم انتشار الاقطاع فى ايطاليا على خلاف ماحدث فى بقية أوربا وذلك بسبب وجود هذه المدن الكبيرة ذاتها ، وكان لعدم انتشار الاقطاع فى ايطاليا آثار كبيرة فقد أوجد الاقطاع فى بقية البلاد الاوروبية تلـــك المصلحة المشتركة جمعت بين أهل الطبقة المتوسطة وبين الملوك خصوصا

فى فرنسا وانجلترا حتى يمكن التخلص من سيطرة البارونات أو النبلاء ونتج عن ذلك قيام الملكيات ذات الحكومات المركزية ثم تكوين الدولة الوطنيــة الحديثــة ٠

وأما فى ايطاليا التى لم ينتشر بها الاقطاع وقد اختفت منها هذه الظاهرة وظلت المدن الايطالية مقر السلطة المطلقة سواء كانت هذه السلطة فى يد الامير او الدوج او الجماعات الأولجركية الصغيرة من التجار علــى غرار ماحدث فى ميلان " الامير يحكم " وجمهورية البندقية " الــدوج " او فلورنسا ، ونتج عن هذا النمو السريع وغير الطبيعى فى ايطاليا : —

أولا — أنه الى جانب سياسة للتوازن الدولى التى شوهدت فى القــارة فى مبدأ العصور الحديثة أى فى القرن السادس عشر وجــدت سياسة قائمة على مبدأ التوازن نفسه فى ايطاليا ومقصورة علــى المدن الايطالية وحدها ٠

ثانيا — أن هذا النمو السريع الذى جعل من المدن الايطالية مجموعة من الأمم الصغيرة لم يلبث ان جعل كذلك هذه المدن الأيطالية معرضة لخطر الغزو من جانب الدولة الوطنية الحديثة التى نشأت فى غرب أوروبا والتى كانت ذات موارد أوسع ولنشاطها ميادـــين أبعد مدى وذات قدرة أكبر على الوصول الى غاياتها وتحقيــق أغراضها الاقتصادية والسياسية ٠

ألمانيـــا :

وعلى العكس مما حدث فى ايطاليا تماما يرجع السبب فى اخفاق توحيد الحكومة فى ألمانيا الى أنها كانت متأخرة النمو وهذا على الرغم من وجود المدن الكبيرة فيها ويعزى تأخر نموها هذا الى أنها كانت ذات مساحة واسعة وبقيت مساحات شاسعة منها فقيرة لعدم تقدم الزراعة بها فأصبحت البلاد عاجزة عن إنتاج قدر من الثروة يزيد على حاجة استهلاكها ويمكن استخدامه فى توفير المال الذى تحتاج له أية حكومة تريد تركيز سلطتها وتعمل على ربط الاقاليم الواسعة ، ومع هذا فقد عاشت فى ألمانيا شعوب جمعت بينها الجرمانية فى الجنس وفى اللغة فأوجد ذلك نوعا من الشعور الوطنى ولذلك فقد صار ممكنا أن تنشأ فى ألمانيا وحدات مركزية صغيرة :

أولاً — على أساس أن تكون كل وحدة من هذه الوحدات يشترك أهلها فى الجنس وفى اللغـة .

ثانياً — على أساس أن الموارد التى لاتكفى لإنشاء حكومة واحدة مركزية لإدارة شئون ألمانيا بأجمعها كانت من ناحية أخرى كافية تماما لأن تسد حاجة الوحدة المركزية الصغيرة .

فعلى ذلك ظهرت فى ألمانيا حكومات الامراء الصغار الذين أنحصرت عنايتهم فى وضع القوانين لإماراتهم وتشجيع التجارة والقضاء على الاضطرابات فى داخل الاراضى التى يحكمونها ، ولم يكن من مصلحة هؤلاء الامراء الصغار التنازل عن شئ من سلطاتهم او السماح بتجريدهم من هذا السلطان من أجل إنشاء حكومة موحدة ذات سلطة مركزية موحدة للبلاد كلها وبناء على ذلك بقيت اللامركزية قائمة فى ألمانيا على أساس التقسيمات

الاقليميــة او الإمارات الصغيرة حتى آواخر القرن التاسع عشر، ومع هذا فأن المانيا كانت أقرب الى الوحدة القومية من ايطاليا لسببين : —

اولهما — وجود المجلس الامبراطوري ويسمى Diet (دياط) وهو مجلس يمثل الإمارات وبمثابة مؤتمر للسفراء ويتألف من ثلاث طبقات أو دوائر، الأولى من الناخبين الذين من حقهم انتخاب الامبراطور وهؤلاء يتكونون من الامراء العلمانيين ومن رجال الدين الاكليروس . والطبقة الثانية من بقية رجال الدين والامراء العلمانين "الشرقيين" والطبقــة الثالثة من المدن الامبراطورية أى المدن التي يكون رئيسها الأعلــى الامبراطور نفسه . ولما كان الدياط يتألف من ممثلي الامرات فقــد انحصر جهده في المحافظة قبل كل شيء على استقلال الامراء مــن علمانين واكلـيروس او رجال الدين فأدى ذلك الى اثارة النضـــال المستمربين (دياط) والامبراطور .

وثانيهما: وجود الامبراطور الذى كان يتمتع بمركز يفوق قليلا مركز بقية الأمــراء فكان الامبراطور يسعى دائما لتوطيد نفوذه وسلطانه وإنشاء حكومــة مركزية موحدة، ولو أن هذا المسعى جعله أيضا في نزاع مستمــر مع الامراء الممثلين في الدايت او الدياط ، وفي العصور الوسطــى لم يستطع الامبراطور تحقيق رغبته بسبب النزاع الطويل مع البابويــة من جهة ثم بسبب الضعف الذى لحق بالامبراطورية نفسها عندمــا بقي منصب الامبراطور شاغرا مدة ٢٠ سنة تقريبا . أثناء فترة الخلو العظمـى Great interregnum التى أعقبت سقـــوط أسرة هوهنشتاوفن ، وظلت الامبراطورية في اثنائها من غير امبراطور من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٢٧٣ م فاستفادت الامارات من هــــذه

الظروف كما استفادت المدن الكبيرة وسرعان ماتألف من المدن الكبيرة تحالف للدفاع عن مصالحها يسمى اتحاد الهانسا .

وفي القرن الخامس عشر اتسع نطاق هذا الاتحاد حتى صار يشمل جميع المدن في المانيا من حدود فلندرا في الغرب الى حدود روسيا في الشرق. كما أصبح يسيطر على كل التجارة تقريبا في بحر الشمال والبلطيق ، وعندما تولت أسرة هابسبرج شئون الامبراطورية بعد فترة الخلو سنة ١٢٧٣ م كان من المنتظر أن تنصلح الاحوال في المانيا ولكن شيئا من هذا لم يحدث بل استمر النزاع في عهد هذه الاسرة على تاج الامبراطورية واستطاعت سويسرا كما رأينا الخروج عليها من دائرة نفوذ الامبراطورية الرومانية المقدسة ثم بقى الحال على ذلك حتى اعتلى مكسمليان الاول من أسرة هابسبرج عرش الامبراطورية من سنة ١٤٩٣ الى سنة ١٥١٩ م فأعاد الى الامبراطورية الكثير من هيبتها المفقودة . ويعتبر المؤرخون حكم مكسمليان الأول بمثابة فترة الانتقال بين العصور الوسطى الى العصور الحديثة في تاريخ الامبراطورية ذاتها .

ب - في أوربا الشمالية والشرقية : -

اسكنديناوة - بولندا - وهنغاريا أو المجر - روسيا :

تقع أقاليم اوروبا الشمالية والشرقية بعيدة عن السلسلة الفقرية الاقتصادية ولذلك كان سيرها في طريق الجدة والحداثة بطيئا ، وزيادة على ذلك فانه بينما كانت تتخلص اوروبا الغربية من بقايا الإقطاع كان

الرق ورقيق الارض يجدان أن لهما منفذا للدخول الى بلاد الدانمرك والسويد فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ثم بعد قليل الى بولندة وروسيا. والسبب فى ذلك أن أوروبا الغربية كانت تقع فى منطقة السلسلة الفقرية الاقتصادية ثم أن هذه السلسلة الفقرية ذاتها كانت تنتقل نحو الغرب وهذا الى جانب قيام الرحلات الاستكشافية الى العالم الجديد من موانى اوروبا الغربية فأدى ذلك كله الى زيادة ثورة أوروبا الغربية ووفرة المنتجات بها الامر الذى جعل النبلاء فى اقاليم اوروبا الشمالية والشرقية يريدون الحصول على هذه المنتجات لعدم وجود مثلها لديهم فحفزتهم هذه الرغبة على اتباع الوسائل التى يمكن فيها جمع المال اللازم لشرائها ماتسبب عنه وقوع الارهاق الشديد على طبقة الفلاحين وانتشار رق الارض فى هذه البلاد .

على أن رغبة هؤلاء النبلاء فى الحصول على ممتلكات ومتاجر الغرب لم تلبث أن أدت الى نمو علاقات التبادل التجارى بين هذه الجهات الشمالية والشرقية وبين أوروبا الغربية ونجم عن هذا النمو ظهور نشاط الطبقة المتوسطة ذات الاغراض والميول القومية او الوطنية المماثلة لاغراض وميول نظرائها فى أوروبا الغربية، وعلى ذلك فان خروج هذه البلاد من حالة التأخر التى كانت بها أصبح مرهونا بظهور الطبقة المتوسطة بها وصار متناسبا مع نشاط هذه الطبقة المتوسطة فصارت كل من الدانمرك والسويد أمة حديثة فى أواسط القرن السادس عشر، وهذا بينما بقيت بولندة متأخرة وتشبه ألمانيا فى تكوينها السياسى، ولاتستطيع إنشاء حكومة مركزية قوية بها تتناسب مع مساحتها الواسعة، اما هنغاريا فكانت فى حالة انحلال تام فى القرن السادس عشر بينما لم تدخل روسيا بتاتا فى نطاق الدول الحديثة الا فى

الجزء الاخير من القرن السابع عشر ٠

جـ ـ في أوروبا الجنوبية الشرقية :

الاتراك العثمانيون :

الأتراك العثمانيون من الأجناس البدوية الذين اضطروا في تجوالهم الى الانحدار غربا بسبب ضغط أجناس اخرى من الصين على مؤخرتهم فاقتحموا آسيا الصغرى ثم عبروا البسفور والدردنيل ، وفي عهد محمد الفاتح استولوا على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ثم جعلوها عاصمة لإمبراطوريتهم التي أخذت تتسع رقعتها في أوربا ذاتها بفضل قوة فرسان الأتراك من ناحية ثم بفضل قوة المشاة العسكرية التي أنشئوها من أبناء المسيحيين الخاضعين لهم والتي عرفت بأسم الانكشارية من جهة أخرى ، وفي السبعين سنة التي تلت سقوط القسطنطينية انحصرت جهود الاتراك في تثبيت أقدامهم في أوروبا ذاتها كما حاولوا غزو فارس ومصر.وفتح سلطانهم سليم الاول مصر سنة ١٥١٧ م وتقلد هذا السلطان الخلافة فجمع في شخصه بين السلطتين الزمنية والروحية وقد حكم من سنة ١٥١٢ الى سنة ١٥٢٠ م، وفي عهد خليفته سليمان القانوني ، حكم من سنة ١٥٢٠ الى سنة ١٥٦٦ م توغل الاتراك في أوروبا عن طريق نهر الطونة فوصلوا الى ابواب ڤينا وتوغلت أساطيلهم في البحر المتوسط فوصلوا الى شاطئ اسبانيا وبلغت قوة العثمانيين أوجها تقريبا في الوقت الذى اشتد فيه النضال بين شارل الخامس وبين ملك فرنسا فرنسوا الاول من أجل التفوق السياسي في اوروبا فكان العثمانيون في بداية العصور الحديثة خطرا يهدد اوروبا وخصوصا أوروبا

الشرقية على أن نجاح الاتراك فى أوروبا كانت نتيجة أمرين : ـ

الاول : موقع بلادهم على الطرق التجارية بين الشرق والغرب فكانوا أصحاب ثروة استطاعوا بفضلها استخدام الاوروبيين فى إنشاء مدفعية وبناء أسطول ضخم أى فى إعداد الأداة التى سهلت فتوحاتهم ثم مكنتهم من تثبيت سيطرتهم على الطرق التجارية فازدادوا غنى وثراء واستمرت فتوحاتهم .

الثانى : هو اشتباك الأتراك مع شعوب فى أوروبا الشرقية والجنوبية كانت ضعيفة ولم تستطع ردهم والدليل على ذلك أنه عندما توغل الاتراك فى المانيا وهى من دول اوروبا الغربية والوسطى تعذر عليهم التقدم كما عطل وأوقف زحفهم وجود المدن المحصنة مثل ڤينا ، وعلى ذلك فانه بمجرد أن اكتشفت طرق تجارية غير تلك التى سيطر عليها الاتراك ثم أخذ الاتراك يشتبكون مع شعوب قوية صار من المنتظر أن تضعف دولتهم لأن قوتهم كانت تقوم قبل أى شىء آخر على استمرار الفتوحات الجديدة دائما .

ذلك اذن عرض للحالة التى كانت عليها اوروبا فى تكوينها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى فى بداية العصر الحديث والذى يجب توضيحه الان انه قد ترتب على هذه الحالة حادثان هامان : أولهما : أن الدولة الحديثة التى تم تكوينها وتوحيدها مبكرة صارت تطلب التوسع خارج القارة الاوروبية فنشأت عن ذلك حركة الاستكشافات الجغرافية التى اقترنت بنشر الثقافة الاوروبية والنفوذ الاوروبى فيما وراء البحار او بمعنى آخر الاستعمار الاوربى

وثانيهما : الدولة الموحدة التى كانت متقدمة فى تكوينها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى على غيرها صارت تطلب كذلك التوسع فى داخل القارة الاوروبية ذاتها على حساب الأمم التى بقيت متأخرة ولم تقم بها حكومات مركزية قوية فنشأت من ذلك مايعرف بالحروب الايطالية ٠

الفصل الخامس

حركة الاكتشافات الجغرافية

أ ـ أسباب الكشف الجغرافى وبداية الاستعمار :

فى فترة الانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة استأنفت الملاحة نشاطها تدريجيا منذ القرن الثانى عشر خصوصا وفى مدة القرون التالية : الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، تأثر الملاحون بالفكرة الاغريقية القديمة القائلة بأن من المستطاع الوصول الى الشرق اذا اتجه الانسان جهة الغرب من الشواطئ الأوروبية الغربية . ولذلك بذل الملاحون جهودا كثيرة لتحقيق هذه الفكرة .

وكان من دواعى النشاط للوصول الى الشرق ظهور الدولة الوطنية الحديثة . فان هذه الدولة التى توطدت حكومتها الموحدة والمنظمة القوية سرعان ماصارت تشعر بالعزة القومية ، ويدفعها هذا الشعور الى الرغبة فى بسط سيطرتها على غيرها من الأمم والشعوب التى تأخر تكوينها، وكانت أقل تنظيما منها ، سواء فى القارة الاوروبية او فى خارجها . ولذلك كانت أسبق الدول التى سعت لنشر نفوذها فى الخارج (خارج القارة) ـ أى الاستعمار ـ هى الدول الست الكبرى التى تم تكوينها وتوحدت السلطة بها : اسبانيا ، البرتغال ، هولندة ، انجلترا ، فرنسا ، روسيا ، ثم تأتى بعدها الدانمرك والسويد ، ثم ايطاليا والمانيا فى القرن التاسع عشر . هذا بينما ظلت النمسا محرومة من امتلاك المستعمرات لانها تألفت من شعوب كثيرة ، وكانت بعيدة عن مجموعة الدول الوطنية الحديثة .

أما هذه الدول الوطنية التى اعتزت بقوميتها واعتقدت بصلاحية

حضارتها فقد اخذت على عاتقها نشر أصول هذه الحضارة الى جانب مذاهبها الدينية . وبقيت الرغبة فى نشر المسيحية من الحوافز التى دفعت البرتغاليين وكذلك الاسبان على تحمل المشقات أثناء رحلاتهم وكما فعل الفرنسيون عندما أخذوا يبشرون بالمسيحية على يد جماعة الجزويت فى حوض المسيسبى ومنطقة البحيرات العظمى فى أمريكا الشمالية .

وكانت الحماسة الدينية عند البرتغاليين والاسبان هى التى أدت الى أن يحتلوا مستعمرات واسعة . فقد سعوا سعيا متصلا فى سبيل طرد العرب من بلادهم بعد ان ظل العرب بها مايزيد على سبعة قرون ونصف وقد تم ذلك على يد ملك اسبانيا فردينا ند فى نهاية القرن الخامس عشر وكافأه البابا على نجاحه هذا بمنحه لقب " الملك الكاثوليكى " ، وهو لقب يتباهى به يومئذ بين ملوك اوروبا ، وباخراج المسلمين من الأندلس تملكت مسيحيو شبه جزيرة أيبريا رغبة قوية فى مطاردة المسلمين خارجها ، وانتقل نشاطهم الى شمال افريقيا وغربها يتعقبون المسلمين وراودتهم الآمال فى امكانية محاصرة الاسلام عن طريق البحر وطعنه من الخلف وسحقه فى افريقيا وآسيا .

ولقد كان من أهداف الكشف الجغرافى فى نظر البرتغاليين ، تحويل المسلمين فى غرب افريقيا وفى غيرها من المناطق المزدحمة بهم الى المسيحية ، بل لقد استهدفت البرتغال ايضا تحويل اثيوبيا الى المذهب الكاثوليكى وفصلها عن الكنيسة القبطية فى مصر .

ان حركة الكشوف الجغرافية قد ظفرت بأعظم اهتمام من البابوية ، فأصدر عدد من البابوات مراسيم متلاحقة يمنحون فيها ملوك البرتغال

واسبانيا الحق فى ملكية كل إقليم جديد او كل بحر يتم اكتشافه فى الحاضر والمستقبل ٠

وتجيء العوامل الاقتصادية بعد العامل القوى والعامل الدينى فقد كانت الدوافع الى الاستعمار و التسلط بوجه عام اولا وأخيرا الرغبة الشديدة فى الكسب المادى والجشع الاقتصادى ٠ هذا اللون يطلق عليه الاستعمار الاقتصادى اى التسلط على بقاع الارض واتخاذها اسواقا للكسب المادى العريض، وذلك عن طريق تكوين الشركات الرأسمالية ٠ وقد أسهم فى هذا النوع من الاستعمار رجال من أصحاب النشاط المادى المرموق فى بلادهم ، أنشأوا فى هذه المستعمرات مشروعات متعددة الاغراض منها ما هو تجارى لتصريف البضائع والسلع ، ومنها ماهو زراعى يقوم على انشاء المزارع الواسعة لتوفير محاصيل المناطق الحارة مثل المطاط والقطن وفيها مشروعات البحث والتنقيب عن معادن الارض ٠ وكان هذا الغرض واضحا فى سائر مراحل الاستعمار فكانت دول اوروبا تعتمد فى الحصول على كماليات حياتها على ماياتيها من تجارة الهند والشرق الاقصى ٠

والواقع ان التجارة الشرقية كانت تحقق أرباحا خيالية للمشتغلين بها منذ شحنها فى موانى التصدير فى آسيا حتى يتم توزيعها فى أسواق اوروبا ، وكان قوام هذه السلع : التوابل والعطور العربية والعقاقير الهندية والأقمشة الحريرية والعاج ٠

ولقد ارتفعت أسعار السلع الشرقية ارتفاعا فاحشا بسبب الضرائب الجمركية الباهظة التى كان يفرضها حكام الدول الشرقية وبخاصة سلاطين المماليك على الطريق من أماكن تصديرها الى الشواطيء الأوروبية ، هذا

بالاضافة الى ان السلع الشرقية كانت تصل اوروبا طبقا لقانون العرض والطلب بكميات قليلة وبأسعار مرتفعة . كما كان الطريق الذى تسلكه القوافل فضلا عن طوله غير مأمون ، لذلك كانت الرغبة فى الاتصال المباشر بمصادر هذه السلع والتمكن من السيطرة عليها وعلى أثمانها وتأمين طريقها عاملا أساسيا دفع الى ظهور حركات الكشف وتأسيس المحطات التجارية الهامة على الطريق البحرى من غرب أوروبا وغرب أفريقيا وشرقها فسواحل المحيط الهندى الى منطقة جزر الهند الشرقية الغنية بالتوابل وخاصة فقد تبين للبرتغال وقتئذ انه يجب لإضعاف العالم الاسلامى والقضاء على قوته قضاء تاما — ان تنتزع تجارة التوابل من أيدى تجارها من المسلمين ، ليحرموا من أرباحها وتحصيل ماينبغى عليها من ضرائب . ولم يكن من الممكن تحقيق ذلك مادام الطريق التجارى بين الشرق والغرب يمر بأراضيهم ، وعلى ذلك ، فقد ظهرت الرغبة فى اكتشاف طريق جديد للوصول الى الهند والشرق الاقصى مباشرة دون المرور ببلاد المسلمين المطلة على حوض البحر المتوسط .

وزيادة على هذه العوامل فقد جدت أساليب اخرى للكشف الجغرافى والاستعمار ، أهمها رغبة الدول التى ضاقت أرضها بأهلها وسكانها فى ان تجد أقاليم صالحة لتوطين واستقرار السكان الفائضين بها ، ولو ان هذا العامل كان ضعيف الأثر قبل القرن التاسع عشر .

ويضاف الى كل ماذكرنا عوامل اخرى مثل غريزة حب الاستطلاع ورغبة بعض الناس فى ان يحيوا حياة مليئة بالمغامرات والرحلات . ثم رغبة البعض الآخر فى الهجرة الى بلدان مأمونة يستطيعون فيها ممارسة

شعائرهم الدينية وذلك عندما اشتد الاضطهاد الدينى فى أوروبا نتيجة لانتشار حركة الاصلاح الدينى وانتعاش الكاثوليكية بها وماترتب على ذلك من حروب مهلكة واضطهادات عنيفة ، كما حدث عندما اضطر البيورتان Puritans الانجليز الى الهجرة من انجلترا والهجنوت الفرنسيون من فرنسا والهولنديون كذلك ٠

ومع هذا ، فانه ماكان يتسنى فى آخر الأمر المغامرة والقيام أصلا برحلات الكشف الجغرافى من غير ان يكون قد حدث ذلك التغيير الكبير الذى طرأ على أفكار الناس عموما نتيجة لتنبيه الذهن البشرى فى عصر النهضة ٠ كما كان لتقدم المعلومات الجغرافية وارتقاء فن الملاحة مع تقدم صناعة بناء السفن واستخدام البوصلة البحرية وآلة الاسطر لاب أكبر الاثر فى تشجيع المغامرين على القيام بهذه الرحلات البعيدة ٠

أضف الى هذا ان استخدام البارود سرعان ماجعل ممكنا القضاء على مقاومة الاهالى والسكان الاصليين فى البلدان التى قصدها هؤلاء المغامرين ، على نحو مايشاهد فى تاريخ الاستعمار البرتغالى فى بداية العصور الحديثة ٠

ب ــ الكشوف البرتغالية ونظام استعمارهم :

يرجع الى البرتغال الفضل فى كشف السواحل الافريقية المطلة على المحيطين الاطلنطى والهندى ، اذ بدأت عملية الكشوف البرتغالية بنزول الامير هنرى الملاح Don Hanrique (١٣٩٤ــ ١٤٦٠م) ، الى مدينة " سبته " المغربية عام ١٤١٥ م ، ومنذ ذلك التاريخ ومن

هذا المركز الاستعمارى البرتغالى الاول فى الساحل الافريقى ، استمرت حركة المستكشفين البرتغاليين للدوران حول افريقيا التى انتهت بنجاح الملاح البرتغالى " فاسكو دى جاما " Vasco da Gema فى الدوران حول الطرف الجنوبى للقارة الافريقية الذى اطلق عليه اسم " رأس الرجاء الصالح " فى ١٤٩٨ م – ثم واصل سيره فى المحيط الهندى بمعونة ملاح عربى هو " أحمد بن ماجد " الى ان وصل الى ساحل الملبار فى شبه القارة الهندية حيث بدأ تأسيس امبراطورية برتغالية فى فى الشرق . وقد استطاع البرتغاليون خلال القرن السادس عشر إنشاء عدة مستعمرات ومحطات عسكرية على ساحل الملبار – وهو الطريق الى الهند – وفى هرمز وعدن ، وكذلك على السواحل الغربية والشرقية للقارة الافريقية ، وكذلك فى جزر ماديرا وآزورا وفى الرأس الاخضر . كما سيطروا على البحر الأحمر بالكامل . كما أسس البرتغاليون مستعمرة كبيرة فى البرازيل وعينوا لها حكاما ، وأدخلوا بها زراعة قصب السكر وتربية الماشية وأنشأوا المعامل لصناعة السكر .

وسرعان ما تكونت الشركات التجارية البرتغالية للاتجار فى الذهب والرقيق الذى أخذت الحاجة اليه تزداد فى القرن السادس عشر للعمل فى امريكا حتى ان البرتغال وان ظلت حتى نهاية هذا القرن تحتكر تصدير الرقيق الافريقى لم تستطع أن تسد الطلبات المتزايدة منه وبدأت الدول الاوروبية الاخرى تشارك فى هذا الميدان .

ومن الأهمية بمكان ان نسجل ان ريادة البرتغال لحركة الكشوف الجغرافية كانت نتيجة وسببا ايضا وذلك من الوجهة الاقتصادية ، لقد

أرادت البرتغال ان تحرم المسلمين من أرباح تجارة الهند ، وكان لهـا ما أرادت بعد تحطيم الاسطول المملوكى امام سواحل الهند فى موقعـة " ديو البحرية " عام ١٥٠٩ م ٠ الا ان البرتغال نفسها لم تستفـد من امبراطوريتها ٠ فمع ان لشبونة العاصمة كانت فى ازدهار ورخـا ، فى القرن السادس عشر لكونها مركز تجارة الهند فى المملكة ، فان داخـل البلاد كان فى تأخر ظاهر ٠ والسبب فى هذ ان الفلاحين البرتغاليـين صاروا يتركون حقولهم للاشتراك فى الرحلات والحملات والحروب ٠ فصارت الزراعة مهملة ، وكثرت الارض البور ، واضطر البرتغاليون الى استخـدام الرقيق بدرجة كبيرة ، وانتشر البؤس فى البلاد ٠

بالاضافة الى ان الارباح التى جنتها البرتغال من خلال حركـة الكشوف الجغرافية ، كانت فاتحة لشهية الدول الاوروبية ، لالتشـارك البرتغال هذه الارباح ، بل لتحل محلها فى ميدان الاستعمار بحيـث لم تستقر أولى الامبراطوريات الاستعمارية فى التاريخ الحديث ــ وهـى امبراطورية البرتغال لأكثر مدقرية من الزمان ٠ ثم بدأ الهولنديـون يهاجمون مراكز البرتغال ويحلون محلهم فى الشرق ، ولم تستطع الامبراطورية البرتغالية الدفاع عن نفسها لانها كانت ضعيفة ٠

جـ ــ الكشوف الاسبانيـة ونظام استعمارهـم :

اتجه الاسبان فى رحلاتهم الاستكشافية صوب الغرب ، وكان صاحـب الفضل فى كشف الطريق الغربى نهائيا كريستوف كولمبس Christopher Columbus (١٤٥١ ــ ١٥٠٦) ٠ ويبدأ تكوين امبراطورية اسبانيـا

الاستعمارية من تاريخ البحث عن هذا الطريق واستكشافه فى القـــرن الخامسعشر . ويمر تاريخ الاستعمار الاسبانى فى دورين :

الدور الأول : (١٤٩٢ ــ ١٥١٦) :

فقد تسلطت على كولمبس فكرة إمكان الوصول الى آسيا بالسير فـــى المحيط والاتجاه غربا من شبه جزيرة إيبريا . وبعد جهد كبير قبل ملكـــا اسبانيا فرديناند وايزابيلا تعضيده عام ١٤٩٢ ، فقام برحلته الأولى حيث وصل الى احدى جزر البهاما وسماها " سان سلفادور " وكشف شاطـىء كوبا الشمالى وجزيرة هايتى (سان دمنجو) وسماها اسبانيا الصغـيرة Espan ola ورجع الى اسبانيا فى مارس ١٤٩٣ وهو يعتقد انه قـــد وصل فعلا الى طرف العالم الشرقى . ثم قام برحلته الثانية فى نفـــس العام لاحتلال الاراضى الجديدة واستعمارها واستخراج الذهب ولنشـــر المسيحية بين السكان الوطنيين ، فوصلت الحملة الى اسبانيولا وكشـــفت " چمايكا " وعادت الى اسبانيا عام ١٤٩٦ ولكن كولمبس فشل فى رحلته الثالثة والرابعة فرجع الى اسبانيا وكأن قد خسر كثيرا بعد نجاحه الاول بسبب فشله ووشايات أعدائه ولأن الممتلكات الجديدة أصبحت فريســـة للقلاقل والاضطرابات .

وكانت لرحلات كولمبس هذه أثران . أولهما : ان ملكا اسبانيا الكاثوليكيان عملا على تثبيت أملاكهما لهذه الاراضى الجديدة ، فأخـذا من البابا عام ١٤٩٢ م الحق المنفرد والملكية المطلقة فى جميع الاراضـى التى استكشفوهـا او يستكشفونها فى كل الجهات سواء كان يحتلهـــا

اولا لايحتلها أمراء مسيحيون ٠ [1]

وأما الأثر الثاني الذي احدثته رحلات كولمبس ، فكان فتح الطريق لرحلات الافراد والمغامرين ، فاستطاع الرحالة الجدد بين عامي ١٤٩٩ و١٥٠٨ الوصول الى اسبانولا ثم الى مصب نهر الامازون وبرزخ بناما وحول كوبا ، وتلى ذلك توطين الاسبان بأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ٠

الدور الثاني : (١٥١٦ ــ ١٦٠٠) :

وقعت أهم حوادث هذا الدور في عهد الامبراطور شارل الخامس (١٥١٦ ــ ١٥٥٦) ٠ وهذه شملت الرحلة حول العالم ، وفتوحات الاسبان في المكسيك وبيرو وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ٠

أما الرحلة حول العالم فقد قام بها فرديناند ماجلان Magellan من أجل البحث عن الطريق الغربي الى الهند فغادر اسبانيا عام ١٥١٩ ووصل الى شاطئ البرازيل ثم دار حول امريكا الجنوبية ووصل الى المحيط الهادى وبلغ الفلبين عام ١٥٢١ حيث قتله أحد الوطنيين ٠ وقد تمكن أحد رجاله وهو سباستيان ديلكانو Delcano من قيادة بقية الحملة والعودة بها عن طريق رأس الرجاء الصالح الى اسبانيا عام ١٥٢٢ وبذلك تكون الرحلة حول الكرة الارضية قد استغرقت ثلاث أعوام ٠

---

(١) والمقصود بذلك البرتغاليين ٠

وقد أدى نجاح هذه الرحلة الى تصحيح أخطاء كثيرة كانت شائعة كما ان الرحلة صححت موضع الاراضى التى استكشفها كولبس وغيره وأظهرت ان هذه الاراضى المستكشفه حديثا انما هى عالم جديد لاصلة له بأوروبا اوآسيا . وزيادة على ذلك أحدث نجاح هذه الرحلة أثرا سيكولوجيا بعيدا عندما صار شارل الخامس يعتقد ان العناية الالهية تريد له السيطرة والحكم فى العالم المعروف بأجمعه وبالذات فى العالم الجديد بأمريكا .

فتوح الاسبان :

كانت اكثر فتوح الاسبان الاولى فى المكسيك التى سكنتها قبائل الازتك Aztec ذات الحضارة القديمة فى العصور الوسطى فقام كورتيز Cortez القائد الاسبانى بتأسيس مدينة ڤيرا كروز Vera cruz ولم يستطع دخول العاصمة المكسيك الا بعد قتال مرير دام عدة سنوات . وعينه الامبراطور اول حاكم على اسبانيا الجديدة عام ١٥٢١ .

ثم استطاع الاسبان ان يستولوا على " جواتيمالا " سنة ١٥٢٢ " وسلفادور " سنة ١٥٢٦ و " هندوراس " و " ونيكاراجوا " سنة ١٥٢٤ كما أسسوا جملة مدن جديدة فى امريكا الوسطى .

وفى أمريكا الجنوبية قامت حملات الاسبان من بناما المركز الذى أسسوه فى عام ١٥١٩ للتوغل جنوبا فى الاقاليم التى سكنت فيها شعوب الأنكا Inca القديمة ذوى الحضارة العريقة وتشمل فتوحات الاسبان

هضبة بيرو وكل اقليم شيلى وجزء من بوليفيا • وفى النصف الاول من القرن السادس عشر امتد نفوذ الاسبان الى فنزويلا وكولمبيا — وفى السنوات الاخيرة من نفس القرن ، توطدت أقدام الاسبان وانتشر نفوذهم ايضا على ساحل شيلى — الذى لم يستعمر — تدريجيا • ثم استطاعوا الى جانب ذلك استعمار الارجنتين وقد أسسوا مدينة " بيونس ايرس " Buenas Aiers.

وهكذا كان أهم ما امتاز به عصر شارل الخامس اتساع رقعة الممتلكات الاسبانية فى القارة الجديدة •

د — آثار الاستكشافات الجغرافية :

وقد اسفرت حركة الكشوف الجغرافية عن نتائج هامة : —

١ — انتقل مركز التجارة من البحر المتوسط الى المحيط الاطلسى ودبت الحياة فى موانى البرتغال واسبانيا وأوروبا ، فانتعش اقتصادها وازدهرت الحياة فيها •

٢ — تدفقت منتجات الشرق الاقصى والأدنى على مختلف دول أوروبا بأسعار معقولة ؛ ولم تعد التجارة العالمية حكراً على سلاطين الممالك ومثليهم •

٣ — بدأت مظاهر تقدم صناعى ضخم لاتساع المنتجات التجارية والمواد الأولية الآتية من البلاد المكتشفه حديثا •

٤ ــ بدأ العالم أجمع يختبر نوء الحضارة الاوروبية الجديدة التى نشرها الرحالون وأمثالهم فى جهات وأقاليم كانت تقطنها شعوب لها حضارات قديمة أو شكت على الزوال (فى امريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية) ، أو أخرى لاقدرة لها على مواجهة التيارات الجديدة (فى العالم القديم) ، او كانت لاتزال على بداوتها وفطرتها الاولى . وقد اثبت الاوروبيون ان حضارتهم تمتاز عن غيرها بقوة نشاطها المستمد من شبابها وحداثتها .

٥ ــ ظهور تجارة الرقيق ، وظهور ماسمى بالتجارة المثلثة ، حيث كانت السفن الاوروبية تخرج من أوروبا محملة بالسلع والكماليات لتشترى بحصيلتها الرقيق الأفريقى ، ثم تنقله الى العالم الجديد ــ الامريكتين ــ ليعمل فى مزارع الاوروبيين ، ثم تعود السفن الى أوروبا فى المرة الثالثة محملة بالذهب والفضة لتحولها المصانع الأوروبية الى سلع قابلة للمقايضة برقيق آخر وهكذا ولدرجة ذهب معها البعض ــ عن حق ــ الى ان الصناعة فى بريطانيا وغيرها من الدول الاوروبية انما اشتعلت ــ بل استعرت ــ من دم الرقيق الافريقى وعظامه .

٦ ــ هجرة الآلاف من الأوروبيين البيض الى المناطق المكتشفة حديثا لاستغلال الارض بما عليها ومن عليها . ففتح المستعمرون الجدد ميادين جديدة للاستغلال والنشاط الاقتصادى ــ ومع انهم الحقوا الأذى والضرر بالأهالى الوطنيين من هنود فى البداية الذين ساء عيشهم ، فقد تغيرت الاحوال تدريجيا ، وأخذت شعوب

هذه المستعمرات تسير فى طريق النمو المطرد ، وبدأت تظهر مبادئ سياسية جديدة كسيطرة الرجل الابيض والتفرقة العنصرية حتى استطاعت هذه الشعوب الاستقلال فى آخر الامر والانفصال عن الدول المستعمرة فى القرن التاسع عشر .

٧ ـ أدى تدفق معدنى الذهب والفضة على أوروبا الى إحداث تغيير وتطور كبير على أنظمة الحياة السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية فقد أديا الى ثورة فى الاسعار ، كان لها آثار بعيدة على مستقبل الطبقة المتوسطة ، لان كثرة ورود هذين المعدنين تسبب فى رفع الاسعار وبالتالى ارتفعت تكاليف المعيشة والحياة . وشعر بالضنك أهل الطبقات الفقيرة وصاروا ينقمون على التجار وأصحاب المهن الذين يؤلفون الطبقة المتوسطة ـ فوجد هؤلاء الاخيرون أنهم بحاجة الى دعم مركزهم حتى يستطيعون رد هجوم الطبقة الفقيرة عنهم ، فعملوا من ذلك على إيجاد نوع من الحكومة ونوع من الحضارة يمكنان الطبقة المتوسطة من العيش فى أمن وطمأنينة وكانت وسيلتهم الى ذلك هدم الارستقراطية الوراثية ، ثم إنشاء حضارة ونظام حكومى جديد على أنقاض الحياة الاقطاعية القديمة ـ وقد تقدم كيف كان ظهور الطبقة المتوسطة من أهم العوامل فى نشأة الدولة الوطنية الحديثة بحكومتها الموحدة وملكيتها الوراثية .

٨ ـ ظهور حركة الاستعمار الحديث مع نهاية القرن التاسع عشر بدخول المانيا وايطاليا ميدان الاستعمار ـ وهو ما اتخذ شكل التكالب على المستعمرات .

عموما يذهب بعض المؤرخين الى ان الكشوف الجغرافية هى الوجه المضىء للنهضة الاوروبية ، بينما كان الاستعمار وما ارتبط به من ظواهر غير انسانية — وجهها القبيح .

الفصل السادس

حركة الاصلاح الديني

تعتبر حركة الاصلاح الديني التي اشتدت جذوتها في القرن السادس عشر الميلادي من أكبر وأبرز معالم التاريخ الحديث ولا تزال نتائجها باقية الى اليوم تتمثل في المذاهب الجديدة التي أتت بها حركة الاصلاح الديني هذه، وفي الانقسام الديني في أوربا بل وفي العالم الذي يدين بالمسيحية كله، والاكثر من هذا أن هذه الحركة جرّت أوربا الى حروب دموية حامية، وكانت هذه الحركة أعنف ضربة تلقتها الكنيسة الكاثولوكية في القرن السادس عشر، وترتب عليها أن خرج على هذه الكنيسة اكثر من نصف اوروبا الغربية التي كانت تدين لها بالولاء الديني والتي ظلت أكثر من ألف عام تحت نفوذ كنيسة روما .

لقد تعلمنا من خبرات الماضي أن لكل حادثة تاريخية أسباب ونتائج ولا يبدأ تغيير تاريخي من فراغ بل لابد من الاسباب والعلل التي تدفع الناس في مكان او زمان إلى تغيير الواقع الذي تعيشه . ومن هنا فان لحركة الاصلاح عوامل قوية أخذت تتجمع حتى حانت الفرصة لكي يحدث ماحدث واهم هذه العوامل : ــ

١ ــ تدهور البابوية :

تعرضت البابوية لهزات عنيفة بعد ان بلغ النفوذ البابوي ذروته في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وبعد ذلك، فقد تغير مركز البابا عندما جمع بين صفته الدينية كرئيس للكنيسة المسيحية، وصفة اخرى

اكتسبها كحاكم دنيوى لايقل عن الملوك والحكام فصار يحكم ولايته حكمـا زمنيا وله بلاط ينافس بلاط الملوك والأمراء فى الترف والانحراف .

وقد حدث انشقاق بين رجال الدين فى روما ترتب عليه أنه وجـد فى بعض الاحيان على رأس العالم المسيحى الغربى اثنين من البابوات احدهما فى "أفنيون" والآخر فى "روما" يتنازعان زعامة العالم المسيحـى ويطعن كل منهما فى صلاحية الاخر لتولى كرسى البابوية وبذلك ظهرت عوامل التفرقة والتفكك فى العالم المسيحى ، وأدى هذا بالطبع الى أن فقدت البابوية هيبتها واهتزت مكانتها فى نظر المسيحيين .

٢ ـ فسـاد الكنيسـة :

أخذت رذائل الكنيسة تزداد خطورة يوما بعد يوم ، فكان مـن الواضح أن غرض البابوات الاول ان يحصلوا من رجال ورعايا الكنيسـة الكاثوليكية على كل مايستطيعون الحصول عليه من أموال دون مراعـاة للوسائل ومدى اتفاقها مع الروح الانسانية والمبادئ الاخلاقيـة .

ولقد كان البابوات يتحايلون على اصطياد الاموال بكل الوسائـل فكانت الوظائف الدينية تشترى بالمال بصرف النظر عن موءهلات الشخص؛ والعدالة نفسها كانت تشترى بالمال كالعفو عن المجرمين ما الى ذلك .

لقد ترتب على هذه السياسة المالية إفساد لطبقة كبار رجـال الدين وقد ملاهم الجشع فأعماهم عن كل حق ، وكان لتدخل الامـراء فى تعيين تلك الطائفة من رجال الدين أن أصبحوا يتميزون باهتمامهـم

بالسياسة وخدمة بصالح الامراء ، بينما كانت طائفة صغار رجال الديـن مهملة غير مراقبة ، لاتتمتع بنظام او مبادئ أخلاقية معينة .

لذلك رأت هذه الطائفة في حركة الاصلاح الديني فرصتها المواتية للإنتقام من كبار رجال الديـن :

٣ ــ تشجيع الأمــراء :

مما ساعد على حركة الاصلاح الديني رغبة الامراء في التخلص مـن تدخل الكنيسة والبابا ، فقد كان لهما حق تعيين الرؤساء الدينيـين والتدخل في الاحوال الشخصية وجباية الأعشار من الممالك المختلفة . زد على ذلك ماكان للكنيسة في كل مملكة من الاراضي الواسعة المعفاة من الضرائب ، يستغلها رجال الدين كما كان هناك في المانيا عدد مـن المدن الاسقفية المستقلة ، التي يديرها الاساقفة ويمارسون عليها الحكم المدني ، ويجنون منها الفوائد العظيمة ، وكان حكام هذه الوحـدات السياسية يرون أن سلطات البابا تحد من حريتهم واستغلالهم فاندفعـوا في تشجيعهم للحركة الدينية حتى يستكملوا استقلالهم وحتى يخضعـوا رجال الدين الالمان لسلطات حكومتهم بدلا من سلطات البابويـة. من ناحية أخرى فقد كانت هناك أراضي كثيرة في الاقاليم الالمانية تابعـة للكنيسة وتخضع لسلطان البابوية ورأى حكام المانيا ان تخلصهم مـن سلطان البابوية يعني أن يمتد سلطانهم الى هذه الاراضي الشاسعـة فلا تتسرب الاموال العامة الالمانية الى روما .

٤ ــ صكوك الغفران

أما السبب المباشر الذى ساعد على قيام "لوثر" بالثورة ضد البابا فيرجع الى بيع صكوك الغفران ، ولقد نشأت هذه الصكوك أثر فكرة دينية بأن الانسان اذا ارتكب خطيئة وندم على ارتكابه لها وتاب عنها ثم اعترف بها لرجال الدين لايدخل الجنة مباشرة لكنه يظل فترة فى " المطهر ". وقد أشاع رجال الدين أن العذاب الذى يتلقاه الانسان وهو فى المطهر ممكن أن يخفف اذا ماقام بفريضة الحج الى بعض كنائس روما. ثم تطورت فكرة تخفيف عذاب المطهر فأجاز رجال الكنيسة تقديم الهبات المالية للكنيسة لشراء ما أطلق عليه اسم " صكوك الغفران " بدلا من تحمل مشقة الحج الى روما .

ولكن لم يلبث الحصول على الغفران أن تحول الى وسيلة ناجحة فى إثراء الكنيسة وتوفير المال اللازم للبابوات وكبار رجال الدين ليتمادوا فى غيهم ولا أدل على ان مسألة بيع هذه الصكوك قد أصبحت مسألة تجارية بحته ، أن عملاء الكنيسة فى هذا الصدد كانوا من رجال المصارف المالية فى العادة ، ينظمون البيع على أصول تجارية بحته كما يحصلوا على نسبة معينة من المبلغ بحيث لم يكن يودع فى خزينة روما الا نسبة ضئيلة تتراوح عادة بين ٣٠ ، ٤٥ ٪ من القيم الاصلية وقد برر بعض المؤرخين الأوروبيين هذا التصرف من البابوية بأنها كانت فى حاجة ماسة للمال لإعادة بناء كنيسة القديس بطرس فى روما وان هذا هو الدافع لهذا التهافت العجيب على تشجيع عمليات بيع صكوك الغفران بمختلف الوسائل .

وقد كان بيع صكوك الغفران مثار سخط عميق عند كثير من المفكرين

الاحـــرار فاندفع عدد كبير منهم يستهجنون الفكرة من أساسها وبـــدأ طلب الاصلاح ٠

ظهـــور المصلحـــــين

يرتبط اسم " مارتن لوثر " بحركة الاصلاح الديني في المانيا واسم چون كلفن بتلك الحركة التي ظهرت بفرنسا وسويسرا ، كما يرتبط اســـم زونجلي بسويسرا وقد قام كل منهم بدوره الخطير في الموقع الذي كان فيـــه الى جانب تأثيره على جهات اخرى بدرجات متفاوته.على أننا نقـــرر أ ن أولئك المصلحين لم يكونو أول من نادى بحركة الاصلاح الديني ، وان كانوا أول من هاجم تعاليم الكنيسة الكاثوليكيـــة ، بل وغيروا فيما بعد في قواعدها الاساسيـــة ٠

و من المصلحين الذين سبقوا مارتن لوثر جون روكلن John reuchlin ١٤٥٥ ــ ١٥٢٢ ، وأرازموس Erasmus ١٤٦٧ ــ ١٥٣٦ . فقد قـــام جون روكلن بشرح العهد القديم من الكتاب المقدس مستعينا بمعرفته الوثيقة باللغة العبرية ٠ وأثار بعمله هذا كثيرا من الجدل حين رأى الناس فيـــه كشفا عن عيوب الكنيسة ، وما شاع في سلوك رجالها من البدع ٠ وأما إرازموس فقد سعى في تأليب الرأى العام ضد البابوية ، ومفاسدها بما كان ينشـــر على الناس من آراء سديدة وأفكار متحررة ، وأهم عمل أدبي قام به هو نشره ترجمة العهد الجديد من الكتاب المقدس من الاغريقية الى اللاتينية ، وقـــد كان لهذه الترجمة أثرها في تخليص الفكر الانساني من سيطرة رجال الدين.

ثم كشف عن أخطاء الكنيسة وجهل القائمين بأمرها ، وهكذا ساعد كل من روكلن وإرازموس على خلق جو من المعارضة الكنيسية وتهيئة الأفكار لتقبل حركة الاصلاح الدينى رغم أنهما لم يقصدا الخروج على الكنيسة الكاثوليكية ولكنهما كانا يناديان بأن يأتى الاصلاح من داخل الكنيسة نفسها وبعد ان فشلت الكنيسة فى الاستجابة للاصلاح من الداخل ، قام مصلحون أخرون يطالبونها ان تقبل الاصلاح ان اختيارا أو كرها ، وعندئذ بدأت المرحلة الثانية التى كان رائدها مارتن لوثر .

مارتن لوثر :

نشأ فى مدينة " ايزلبن Eisleben " فى سكسونيا بألمانيا فى أسرة قروية فقيرة وعاش عيشة بائسة ، فى بيئة انتشرت فيها الخرافات الدينية والمعتقدات الزائفة التى صورت المسيح فى صورة المنتقم الجبار الذى يتوعد الناس بأقصى أنواع التعذيب والعقاب فى الآخرة فتسلط على مارتن الخوف وتملكه القلق والاحساس بالرهبة من الانتقام الالهى . ولم تقنع نفسه بالوسائل التى كانت تقدمها الكنيسة لتهدئة عذابه النفسى ؛ تلقى دراسة القانون فى جامعة " ارفورت Erfurt " وحصل على الماجستير فى القانون الا أنه بما تسلط عليه من خوف وقلق دينى قرر عام ١٥٠٥ ان ينخرط فى سلك الرهبنة لعل فى ذلك ماينجيه من خطاياه ويخلصه من ذنوبه.ودخل دير أوغسطين حيث انكب على الصلاة والتقشف وتعذيب النفس أملا فى الوصول الى رحمة الله وعفوه . وبعد عامين التحق بجامعة " وتنبرج Wittenberg " ليتم دراسته الدينية .

وفى عام ١٥١٠ زار روما ، واطلع بنفسه على مفاسد البابوية ،
فازدادت شكوكه وعظم ارتيابه فظل يفحص ويتأمل حتى اهتدى الى العقيدة
التى بعثت فى نفسه الهدوء والرضا والطمأنينة . وتتلخص نظريته فى
ان الايمان المطلق برحمة الله يكفل النجاة من عقابه وان الصلاة والعبادة
بجميع طقوسها وأشكالها ليست كافية للخلاص من الخطايا ، وانما يتخلص
الانسان من خطاياه بإسداء الحمد والشكر من قلب طاهر سليم الى
العلى القدير _ تلك هى العقيدة التى اهتدى اليها مارتن لوثر من دراسته
للكتاب المقدس وسميت بعقيدة التبرير بالايمان Justification by faith .
وقد عاش لوثر بهذه العقيدة راضيا مطمئنا لبضع سنوات يبشر بها بين تلاميذه
فى هدوء وسلام دون تدخل من السلطة أو الكنيسة الى أن جاء الدور
ليعلن على الملأ مبادئه وآراءه التى كان لها أثرها الكبير فى تغيير مجرى
التاريخ الاوربى كله .

ففى عام ١٥١٧ م ، سنحت له الفرصة لإظهار مايكنه فى صدره للعالم
الالمانى ، ذلك أن البابا ليو العاشر أرسل الى مدينة وتنبرج راهبا اسمه
يوحنا تتزل John Tetzel يبيع صكوك الغفران فما كان من لوثر ، الا أن
كتب ورقة بها ٩٥ حجة ضد صكوك الغفران منها آراءه ومواقفه من رفضه صكوك
الغفران وقضايا اخرى ودعا الامراء الالمان الى تزعم حركة الاصلاح فى كل
بلاده ، واقامة كنائس وطنية ذات استقلال ذاتى ، وعلقها على باب
الكنيسة ، داعيا للمناقشة كل من يريد من العلماء. فاشتهر أمرها ووزعت على
طول البلاد وعرضها ، خاصة وأن بيع الصكوك شجع على العصيان بالاضافة
الى مخالفتها لمبدأ التبرير بالايمان. وعبثا حاول البابا (ليو العاشر) أن
يجعل لوثر يتراجع عن آرائه . وأخذت الحركة الدينية تنمو بسرعة خطيرة ،

ولاسيما وأن احتجاج لوثر لاقى هوى فى كثير من النفوس رحبت بمهاجمة تلك " التجارة المقدسة ". فطرد " تتزل " من وظيفته ولم يعد هناك أى ميدان لبيع هذه الصكوك، وطلب البابا يومئذ من رئيس جماعة سانت أغسطين أن يضطروا لوثر الى التراجع عن أفكاره الثورية .

وفعلا نوقش لوثر فى مجمع " هيدلبرج Heidellburg فى مايو ١٥١٨ م ولكنه لم يتراجع مطلقا عن مبادئه ، بل استمر فى حركته المعادية للكنيسة فى روما التى رأت أن تقبض عليه ولكن رعاية فردريك أمير سكسونيا له كان لها اثرها فى حمايته .

وقد لخص لوثر المبادئ التى نادى بها فيما يلى : —

١ ـ إخضاع رجال الدين للسلطة المدينة .
٢ ـ إباحة زواج رجال الدين وقد تزوج هو فيما بعد باحدى الراهبات .
٣ ـ الحد من الأديرة والاتجاه لإلغاء الرهبنة .
٤ ـ ليس للبابا الحق فى احتكار تفسير الانجيل .
٥ ـ جعل الطلاق أمرا مشروعا .

وفى عام ١٥٢٠ جمع لوثر أسس عقيدته الدينية والسياسية وأخرجها فى أسفار ثلاثة أطلق عليها رسائل الاصلاح .

الاولى موجهة للمدنيين بالالمانية يحثهم فيها على المساهمة فى إصلاح الكنيسة ، والثانية باللاتينية موجهة الى رجال الدين .

والثالثة غريبة في نوعها تتعلق بالحرية المسيحية وموجهة الى البابا " ليو العاشر " يظهر له فيها لوثر غضبه الشديد وبغضه للحقيقة التالية وهى ان الشعوب المسيحية قدحادت عن جادة الصواب بالخضوع له ، وبما يعـرف بالكنيسة الرومانية ، ويشير فيها الى أنه لذلك قد قاوم ، وسيستمر فى المقاومة مادامت عقيدته حية باقيـة .

ختمت هذه الرسائل انفصال لوثر عن الكنيسة وجعلت من المستحيل اصلاح علاقته بالبابا. وفعلا أرسل اليه البابا رسالة يدعوه فيها للخضـوع للكنيسة ولسلطة البابا الدينية دون قيدا وشرط لكن لوثر احرق كتاب البابـا هذا على ملأ من الناس فى ١٠ ديسمبر ١٥٢٠ فأعلن البابا حرمانه مـن رحمة الكنيسة . ولكن مع هذا الحرمان من رحمة الكنيسة تمكن مارتن لوثـر من المضى فى دعوته وقد ساعدته بعض العوامل نذكر منها .

التأييد السياسـى :

ان طبيعة المانيا السياسية وانقسامها الى إمارات مستقلة جعـلت أمراؤها يرحبون بهذه الحركة ويعتنقون العقيدة الجديدة لكى تكـون خطوة فى سبيل تحقيق استقلالهم السياسى الى جانب انفصالهم الدينى، وقد ساعد على هذه الحركة مالاقاه لوثر من حماية فردريك أمير سكسونيا.

لقد أعطى فردريك الحركة الجديدة من التشجيع ماكانت فى أشد الحاجة اليه فى المراحل الحاسمة الاولى من تاريخها. فحين أصدر كل من البابا والامبراطور ضد لوثر قرارا الحرمان ، تقدم فردريك فحماه من أعدائه

ودبر له مخبأ بعيدا عن متناول أيديهم . وفى أراضى فردريك وبتعضيد منه انصهرت أفكار المصلح الكبير المتأججة ومشاعره الملتهبة لتشكل القالب الذى اتخذته الكنيسة اللوثرية .

دور جامعة وتنبرج Wittenburg

تبنت أفكار مارتن لوثر جامعة " وتنبرج الناشئة والتى أنشاها فردريك أمير سكسونيا ثم مالبثت أن اصبحت المهد الاساسى للتعاليم اللوثرية ومنافسا خطيرا للتعليم التقليدى فى السوربون " ، واليها جاء طلاب العلم من جميع أصقاع المانيا بحيث غدت بمثابة المعمل العظيم للأدب اللوثرى . وفى هذا المكان الصغير وجد العقل القوى لالمانيا ، وهو العقل الذى أثرت فيه مشاعر هذا العصر المحترم وحوادثه ، حيث وجد من يعبر عنه بلغة استطاع كل المانى أن يفهمها ، ومنه أيضا استمد بعض الاساتذة فى جامعة كيمبردج فى ايست انجليا التعاليم المستوحاة من الانجيل رأسا ، وهى التعاليم التى ساعدت على انتشار اللوثرية فى ألمانيا .

من الأهمية ذكر فيليب ملانكتون Philippe Melancton ١٤٩٧ ـ ١٥٦٠ المتعمق فى الدراسات الاغريقية والذى أمد الدين الجديد فى ديسمبر ١٥٢١ بأول كتاب أولى له فى اللاهوت وهو كتاب " كلام معاد Loci communes " وقد كان لفليب ملانكتون فضل كبير على هذه الحركة اللوثرية حيث وضع فى سبيلها جهوده وما امتاز به من ذكاء ومرونة لم تكن فى طباع لوثر .

وقد أفاد اللوثرية بما اتصف به من مهارة دبلوماسية في إيجاد حلول مرضية حاسمة لخدمة تلك الدعوة .

أثناء اختفاء لوثر عند أمير سكسونيا ، انتشرت حركة الاصلاح الديني في المانيا عندما صار يروج لهذا الاصلاح أتباعه وتلاميذه .ثم حدث ان أخذ بعض المتحمسين يتطرفون في دعوتهم ، مما ادى الى وقوع الاضطرابات وجعل حركة الأصلاح تقترن بالعنف والفوضى في كل مكان تقريبا .

فخرج لوثر من عزلته ليدعو الى ضرورة القضاء على هذه الاضطرابات والثورات ، ويطلب تحرير الدعوة الى الاصلاح الديني من الاغراض الاخرى التي كانت في نظره تلصق بالاصلاح الديني المجرد شوائب كثيرة يجب ان يكون هذا الاصلاح بعيدا عنها .

وأما هذه الحركات الثورية المتطرفة فأهمها ثلاث : -

الاولى : حركة الذين يريدون إعادة التعميد Anabaptists وقد ظهرت هذه الحركة في سكسونيا ، قام بها جماعة من البروتستنت المتطرفين الذين قالوا ان تعميد الاطفال من أجل خلاصهم لايتفق مع تعاليم الانجيل فيجب بناء على هذه التعاليم تعميد البالغين من جديد مرة ثانية .

وقد تطرف دعاة هذه الحركة ، ووقعت الاعتداءات والاضطرابات مما عرض الاصلاح الديني للخطر فاضطر مارتن لوثر الى الخروج من مخبأه كي يخاطب في هؤلاء المتطرفين في وتنبورج ويدعوهم الى التزام الهدوء والحكمة وساعده في ذلك فيليب ملانكتون .

والثانية : كذلك قام في الاقاليم الغربية في المانيا (الفرسان)

وهم صغار النبلاء بحركة عنيفة ضد رجال الكنيسة ورؤسائهم من الاساقفة من اجل انتزاع أراضى الكنيسة . ولكن لوثر امتنع عن تأييدهم بسبب الشدة والعنف الذى اتصفت به حركتهم ، كما ان الامراء والفلاحين رفضوا تأييدهم مما أدى فى النهاية الى فشل حركتهم ، ومن ذلك الحين استبعدت طبقة الفرسان كعامل او قوة ذات أهمية فى المانيا .

الثالثة : اما الحركة الثورية الثالثة فكانت أشد عنفا وأكبر خطرا من الحركات السابقة وتعرف باسم " ثورة الفلاحين " وهى سلسلة من الثورات التى قام بها الفلاحون رقيق الأرض الذين استمالتهم دعوة لوثر الى الحرية والانسانية والأخاء الجرمانى ، وعلى ذلك فقد استرشد الفلاحون فى اعتناق اللوثرية باعتبارات اجتماعية واقتصادية ناجمة عن موجة التذمر الشديد الذى انتشر بينهم ، وانتهز الذين يريدون إعادة التعميد Anabaptists وجود هذا التذمر فتصدوا لزعامة الفلاحين ، على ذلك أصبحت ثورة الفلاحين حربا هدامة وموجهة ضد كل سلطة قائمة ، كما أصبح الغرض منها إقامة مجتمع مسيحى جديد على أساس المساواة المطلقة وشيوعية الملكية .

أما لوثر فقد قاوم ثورة الفلاحين بكل شدة لأن المطالب التى أرادوا تحقيقها وهى مطالب مادية واقتصادية واجتماعية ، والمبادئ التى نادوا بها كانت فى نظره مطالب ومبادئ لاتمت بصلة لحركته الاصلاحية الدينية ومن شأنها ان تعرضها الى أكبر الاخطار . وكانت هذه الثورة من أهم الأسباب التى جعلته يخرج من مخبأه ويطلب من الأمراء ان يعملوا على القضاء عليها ، وقد تم ذلك فعلا فى مايو ١٥٢٥ وأعدم قادتها .

وبالقضاء على هذه الحركات الثورية ، وخصوصا ثورة الفرسان وثورة الفلاحين تخلص لوثر من أكبر الاخطار التى هددت مذهبه الجديد فى بداية انتشاره . ومما تجب ملاحظته ان الموقف الذى وقفه لوثر من هاتين الحركتين الى جانب رسائله وكتاباته تجعل ممكنا معرفة الوسائل التى أراد لوثر اتخاذها لاصلاح الكنيسة . وكانت هذه تتلخص فى : ـ

أولا ـ فى أنه يرغب فى إحياء الشعور القومى الالمانى ويريد توجيه هذا الشعور لتأييده ضد البابوية وضد رجالها ، فقد اعتبرها " ايطالية " وليست عالمية .

ثانيا ـ انه اعتمد فى نجاح دعوته على الحكومات الالمانية القائمة اى السلطات الزمنية ممثلة فى الامارات الالمانية ، فكان من نتيجة ذلك ان أصبحت دعوة لوثر الى الطاعة التامة لهذه السلطات القائمة من أركان عقيدته السياسية .

ثالثا ـ ان يبتعد كل البعد عن وسائل الشدة والعنف فى نشر مذهبه وعقائده .

ومن ذلك الحين لم تعد حركة لوثر تلك الحركة الواسعة المحببة الى النفوس كما كانت فى البداية ، وانما فقد لوثر مكانته الاولى ، وتأييد طبقة كبيرة من الفقراء . ومنذ تلك الآونة كان عليه ان يعتمد على الطبقة الوسطى والسلطات القائمة ، ومن ثم بدأت اللوثرية تعتمد على سلطة الدولة . وهذا من مميزات حركة اللوثرية . واذا كان لوثر فقد تأييد بعض فقراء المانيا بسبب

موقفه المعادى لثورة الفلاحين فهو قد كسب تأييد من هم أقوى، ونعنى بالامراء ومنهم فيليب Philippe أمير مقاطعة "هسى Hesse " ثم دوق مكلنبرج Mecklemburg ، وكثير من المدن الالمانية ـ وعرف أنصار المذهب الجديد بالبروتستانت أى المحتجين او المعترضين وانقسمت أوروبا الى معسكرين ، احدهما يذود عن الكاثوليكية ، والآخر عن البروتستانتية التى سرت فى جميع أجزاء اوروبا الشمالية سريان النار فى الهشيم ، نعفا المذهب القديم منها ، واعتنق الكثير من البروتستانتية وبدأ عهد الصراع والحروب الدينية فى أوروبا .

أماكن انتشار العقيدة اللوثرية :

انتشرت العقيدة الجديدة فى اوروبا الشمالية وفى المانيا الشمالية والجنوبية الغربية فى حياة مارتن لوثر نفسه ، ثم فى انجلترا حيث توطدت دعائم الاصلاح الدينى على أسس لوثرية فى جوهرها ، وفى الشمال انتشرت اللوثرية فى الممالك الاسكندنافية (الدانمرك والسويد) لسببين هامين ، هما ان هذه البلاد لم تخرج مفكرا او مصلحا دينيا كما حدث فى المانيا مثلا او سويسرا ولأن الاحوال السياسية فى اسكندنافيا نفسها ساعدت على انتشار المذهب اللوثرى .

فقد كان يجمع السويد والدانمرك والنرويج منذ عام ١٣٩٧ اتحاد كولمار Union of Colmar ثم استقلت السويد نهائيا فى معاهدة مالمو Malmoe عام ١٥٢٤ بزعامة جوستاف فازا Vasa الذى اعتنق المذهب اللوثرى حتى يستولى على أملاك وأموال الكنيسة الكاثوليكية لحاجة

الدولة الجديدة ـ التى انشأها للمال ، وقد ظل يحكم حتى سنة ١٥٦٠.
اما الدانمرك فقد شمل مقاطعات السويد الجنوبية وجميع النرويج ، وشجع ملكها فريدريك الاول ١٥٢٣ ـ ١٥٣٣ (ملك الدانمرك والنرويج) الاصلاح الدينى لأسباب لاتختلف فى جوهرها عن أسباب تشجيع الاصلاح الدينى فى السويد اى طمع التاج والنبلاء فى اراضى وأموال الكنيسة الكاثوليكية ·

ومع ذلك فلم يكن من نصيب اللوثرية الذيوع والانتشار فى كل اوروبا لأسباب منها : ـ

١ ـ صعوبة فهم العقيدة اللوثرية التى عجز كثيرون عن تفسيرها خصوصا فى مسائل تناول القربان ، والتبرير بالايمان ·

٢ ـ اعتماد لوثر على تعضيد الامراء فقط وترك أمثالهم من أهل الطبقات الوسطى والدنيا اول الامر ، مما جعل السواد الأعظم من الناس ينفضون من حوله ·

٣ ـ عدم اهتمام لوثر بمسألة تحديد وتعريف العقيدة الجديدة·

٤ ـ عدم تفكيره فى نشر هذه العقيدة خارج المانيا · وقد أدى ذلك الى وقوع الخلاف فى صفوف اللوثريين أنفسهم بعد وفاة لوثر من جهة ، ثم الى صعوبة التغلب على الكاثوليكية المنظمة وبخاصة عندما امتنع لوثر عن الالتجاء الى القوة والعنف فى نشر مذهبه ·

وقد ظهرت هذه النتيجة بجلاء عندما أخذت الكنيسة الكاثوليكية تنظم شئونها وتصلح مساوئها ، وتستعد للنضال من أجل نشر مذهبها وتعاليمها بكل وسيلة .

على ان النجاح الذى لقيه الاصلاح الدينى الذى نادى به مارتن لوثر بالطرق السليمة لم يلبث أن شجع على ذيوع وانتشار دعوات اخرى للاصلاح فى أنحاء اوروبا على أيدى مصلحين كانوا يترددون فى استخدام العنف والقوة فى نشر العقائد والمذاهب الجديدة . وكان فى طليعة هؤلاء اولبريخ زونجلى الذى انتشر مذهبه فى سويسرا والمانيا الجنوبية ، وجون كالفن الذى انتشر مذهبه فى الجزء الباقى من أوروبا الوسطى والغربية ، وخصوصا فرنسا والاراضى المنخفضة واسكندناوة الى جانب سويسرا ايضا .

اولبريخ زونجلى Ulbrich Zwingli (١٤٨٤ ـ ١٥٣١)

سويسرى الأصل قاد اول دعوة للاصلاح الدينى خارج ألمانيا وبدأ دعوته فى مدينة زيوريخ بعد ان اكتملت ثقافته الدينية عن طريق قراءاته فى الدراسات الاغريقية والرومانية القديمة ودراسة أفكار المصلحين المعاصرين أمثال إرازموس ، وقد بدأ يسمع الناس أفكاره عندما كان أعظا فى كنيسة زيوريخ الكبرى فتأثر به جمهور كبير من السويسرين ، وانقسمت مقاطعات الاتحاد السويسرى ـ نتيجة لبث أفكاره وقيادة حركة الاصلاح الدينى ـ الى بورتستنت وكاثوليك .

لقد قاد الحركة البروتستنتية التى كان لها طبيعة خاصة تختلف عن الحركة اللوثرية فى ألمانيا ، فهى فى الوقت الذى كانت تعارض فيه

مساوئ الكنيسة فى روما . كان لهامهمة أخرى وهى العناية بالاصلاح السياسى والاجتماعى والتنديد بما يقترفه الحكام من مظالم تجاه الطبقات الفقيرة من الشعب .

وقد هاجم زونجلى صكوك الغفران ، كما هاجم فى حروبه ودعا الى زواج القسس والاعتماد على الانجيل دون تعاليم الكنيسة وقد كان يبدو فى اول الامر منضما الى حركة مارتن لوثر ، ولكن سرعان ماتبين الخلاف بين آرائهما فى المسائل الدينية فقد خالف لوثر فى تفسير العقائد ، فزونجلى اعتبر الكنيسة مؤسسة ديمقراطية تتألف من جميع المسيحين الذين يشتركون بواسطة هيئة معينة ينتخبونها منهم فى الفصل فى المسائل المتعلقة بالشئون الكنسية والتعيين فى الوظائف الدينية ، بينما اعتبر لوثر امير الولاية او حاكم البلاد رئيسا على الكنيسة والمهيمن على شئونها ولكن تعاليم زونجلى لم تصادف نجاحا الا فى موطنها الاصلى وفيما يليها من الولايات الالمانية الجنوبية .

ومنذ عام ١٥٢٨ تجلى الانقسام بين اتباعه البروتستنت والكاثوليك ، وقامت الحرب الاهلية بين المقاطعات السويسرية ، واشترك فيها زونجلى بنفسه وانتصر الجيش الكاثوليكى على الجيش البروتستنتى عام ١٥٣١ ولقى زونجلى مصرعه فى موقعة كابل ومزق جسده الى أربعة اجزاء ثم أحرق على محرقة.واخيرا وفى نوفمبر ١٥٣١ تم الصلح بين الطرفين وبمقتضاه أصبح لكل ولاية الحق فى تقرير مسائلها الدينية واتباع المذهب التى تختاره حسب إرادتها .

جـون كلفـــن : John Calvin (١٥٠٩ـ١٥٦٤) .

ولد كلفن لأسرة من أيسر أسر الطبقة الوسطى فى نوايون Noyon ببيكارديا Picardia بفرنسا. وأعانته ظروف حياته على قوة التحصيل فتنوعت ثقافته بين قانونية ودينية خاصة. وقد درس فى جامعات باريس وبورج واورليان وفى الاخيرة وجه كالفن عنايته لدرس اللاهوت وقرأ كتب المصلحين الالمان ولم يقتصر على تعاليمها ولكنه استعان بها على إنشاء مذهبه الخاص ولما بدأ فرانسوا الاول باضطهاد البروتستانت غادر فرنسا عام ١٥٣٣ الى بال فى سويسرا . وفيها نشر كتابه الشهير فى " قواعد المسيحية " عام ١٥٣٦ ولروعة أسلوب الكتاب ووضوح عقيدة كاتبه فى المسيحية راج رواجا عظيما. وبعد نشر قواعد المسيحية بعدة أشهر بلغ كلفن جنيف ، والتقى فيها بغليوم فاريل Guillaume Farel ، وهو واحد من رجال الاصلاح فتعاونا فى العمل ، وتزاملا فى السير فى طريق الاصلاح هادفين الى نشر الفضيلة واتحاد الخلق المستقيم كأساس للحياة ، وتبين لأصحاب السلطات يومئذ خطر الرجلين وعنفهما فى نشر المذهب فطردوهما من جنيف ، فلجا الى استراسبورج "وأقاما فيها حتى عام ١٥٤١، على انه لم يمض الا القليل حتى رأت جنيف انها فى اشد الحاجة الى كالفن لان الكاثوليك الرومانين انتهزوا فرصة هذه الاضطرابات لاستعادة المدينة فأرسل اليه الكردينال "سادوليه" يستدعيه من استراسبورج فأبى ، فشدد انصاره فى وجوب استدعائه فقبل الدعوة ولا سيما لاعتقاده انه بقبولها يحقق الارادة الإلهية ، وعاد الى جنيف فى ١٣ سبتمبر عام ١٥٤١ ، فرحب به اهلها ومن ثم تفرغ الى نشر تعاليمه ووضع قواعد جديدة للكنيسة البروتستانتية بهمة لاتعرف الكلل .

وكان اعتراضه على تعاليم الكنيسة الرومانية أشد من اعتراض لوثر وكان يرى أن البساطة والجد خير الصفات التى يمكن للانسان أن يتحلى بها فلذا شدد النكير على جميع تعاليم الكنيسة القديمة .

ويختلف كالفن ولوثر أيضا فى القواعد التى يجب اتباعها فى انشاء الكنيسة فالمصلح الالمانى (لوثر) رأى بوجوب نقل السلطة الدينية الى الامراء واختصهم بحق ادارتها .

أما رأى كالفن فهو ديموقراطى محض، وهو أن المجلس الدينى وجماعة المعتقدين خير المصادر للسلطة على وجه الاطلاق ولكنه لم يبرر شيئا مما قد ينشأ عن النظام الديموقراطى من هياج او فوضى .

أما القوة التنفيذية فيعهد بها الى محكمة كنائسية تنتخب أعضاءها وتتألف من الكهنة ، واثنى عشر شخصا من موظفى الكنيسة غير الكهنة ولم تكن المحكمة الكنائسية وحدها مصدر السلطة الدينية بل كان يشاركها فى ذلك المجلس الاعلى لتقويم الاخلاق .

وكان لنفوذ كالفن سببا فى وضع كثير من القوانين الصارمة كتحريم الرقص وعقاب الزنا بالاعدام وكان يعلق أهمية كبرى على تربية النشىء وعليه أنشئت المدارس على اختلاف درجاتها لدراسة جميع العلوم المعروفة فى ذلك العصر وهو ما جعل جنيف مركزا للعلوم والمعارف وساعد على نشر التعاليم الكالفينية فى الجهات الاخرى .

ولما لمبادئ كالفن من روح ديموقراطية فان الحكومة المطلقة كانت

تبغضها وتجد فى مقاومتها ، على عكس أعداء هذه الحكومات الذيـــن اتخذوها دينا لهم ، تماما كما كان للمبادئ اللوثرية من بغض كنســى ، وترحيب من جانب الحكومات فى كل المانيا وانجلترا حيث قوت من شوكة هذه الحكومات فى مواجهة الكنيسة ، هذا مع الاختلاف البين فى مبادئ كـــل منهما ، فالكالفنية رمز الثورة والعصيان كانت تنافى مبدأ اللوثريـــة بعدم استخدام القوة .

الخلاصة أن كالفـــن كان للممالك اللاتينية ماكانه لوثر وملانكتو ن للأمة الألمانيـــة .

الفصل السابع

فرنسا فى القرن السابع عشر (الملكية المطلقة)

مازاران Mazarin (١٦٤٣ـ ١٦٦١) :

يعتبر مازران امتداد لسلفه ريشيليو[1] وقد تسلم مازران الحكم وقد كانت فرنسا ذات مكانة عالية دوليا نظرا لتفوقها فى حرب الثلاثين عاما[2]. كان على عرشها ملك تحت الوصاية هو لويس الرابع عشر . وكانت الجبهة الداخلية هى أخطر ماواجهه مازران ، نظرا لأن الاشراف كانوا يتربصون الفرص لاستعادة مكانتهم ، ولأن شخصية مازران كانت مكروهة، والأعباء الاقتصادية بسبب الحروب تثقل كاهل الخزينة بشدة ، ومن ثم كانت الأمور تنتظر أزمة لتفجر على يد الاشراف بصفة خاصة . وحدث ان رفض برلمان باريس فرض ضريبة على البضائع الداخلة اليها ، فكانت فرصة للاشراف

---

(١) الكاردينال ريشيليو Ccrdincl Richelieu , تولى رآسة الوزارة الفرنسية من قبل الملك لويس الثالث عشر فى ١٦٢٤ وحتى ١٦٤٢ ، وكانت فلسفة حكمه هى " ملك قوى ، دولة موحدة وفرنسا المسموعة الكلمة دوليا " فلكى يجعل الملكية الفرنسية قوية شكل جيشا ملكيا يدين بالولاء للملك ولفرنسا وقضى على نفوذ النبلاء ، كما عمل على شل نشاط المجالس النيابية حتى يظل هو السلطة العليا المطلقة . واستطاع وضع حد لنفوذ الهوجونوت ـ البروتستانت الفرنسيين ـ ولكنه ترك لهم حرية العبادة وحق المواطنة . كما عمل على إضعاف كل من الامبراطورية الرومانية المقدسة واسبانيا ـ من خلال الحروب ومؤامرات متعددة خاضتها فرنسا أثناء فترة رآسته للوزارة هو وخليفته مازاران Mazarin

(٢) استولت فرنسا على مقاطعات (متز ، وتول وفردون) على حساب اسبانيا والامبراطورية الرومانية المقدسة .

لجمع قوة من الفلاحين لإسقاط مازاران ودعمتهم البرجوازية ، وانفجرت حرب أهلية عرفت باسم الفروند Fronde لمدة خمس سنوات (١٦٤٨ — ١٦٥٩) . الا ان المتمردين كانوا يعملون لمصالح خاصة بهم اكثر من عملهم لمصلحة فرنسا . فقد وجدت البرجوازية والفلاحون ان الاشراف يسعون نقط الى السلطة ، فانفضوا عنهم واستطاع مازاران ان يهزم الأشراف وأن يخضعهم للملكية التى أصبحت قوية ومدعمة .

خلال حرب الفروند هذه كان المتمردون قد استنجدوا بأسبانيا ولكن مازاران نجح فى إنزال الهزائم بالاسبان فى الارض المنخفضة (بلجيكا) ، واضطرت الى عقد صلح لصالح فرنسا حيث حصلت الأخيرة على (ارتوا) من الأراضى المنخفضة وعلى "روسيون" على الحدود الاسبانية الفرنسية ، ونص صلح البرانس (١٦٥٩) على ذلك وعلى زواج لويس الرابع عشر من ماريا تيريزا ابنة ملك اسبانيا على أن لا يؤدى ذلك الى أى حق من حقوق وراثة العرش الاسبانى .

وبذلك أصبحت فرنسا قوية فى الداخل وفى الخارج ، وتهيأت الظروف لظهور ملك طموح للغاية وهو لويس ١٤ الذى انفرد بالحكم وليعلن من بعد انه (هو الدولة) L'Etat est moi وبدأ ما اشتهر فى التاريخ عهد لويس الرابع عشر .

لويس الرابع عشـــر

حكم لويس ١٤ معظم النصف الثانى من القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر (٥٣ سنة) ، وكان الرجل على مستوى حضارى رفيع فنهضت الحركة الفكرية فى زمانه.ورعاية نهضته تكاد تقرب من المعجزة حيث ظهر العديد من عباقرة الفكر والسياسة والحرب مثل امثال ديكارت وباسكال وكورنى وراســـين ومولـيـــير ٠

النهضة الفكرية فى عصر لويس الرابع عشـــر :

يعتبر ديكارت (١٥٩٦ ــ ١٦٥٠) ــ وقد عاش فى عهد ريشيليو ومازاران ابو الفلسفة الحديثة وصاحب نظرية الشك والذى وضع أساس التربية الحديثة على أساس تدريب العقل على التفكير الحر ، وهومبتكر الهندسة التحليلية ، وعاصره باسكال Pascal (١٦٢٣ ــ ١٦٦٢) صاحب النظرية التى عرفت باسمـــه وله الفضل فى تهذيب التفاضل والتكامل ، واشتهر ــ بكتاباته الدينيـــــة (أفكار) ذات التأثيرات الصوفية والعبارات النثرية السهلة القويـــة ٠

ودارت فى عصر لويس الرابع عشر منافسة أدبية بين كورناى Corneille (١٦٠٦ ــ ١٦٨٤) وراسين Racinne (١٦٣٩ ــ ١٦٩٩) فكلاهمـــا كان قمة فى كتابة المسرحية ومن أبرز ما أخرجه كورناى مسرحية (السيد) ، ومن روائع راسين مسرحية فيدرا وأندروماخ والاسكندر الأكبر ، وكانت لدى كــــل منهما مقدرة فذة على تصوير الشخصيات، الا أن راسين تفوق تفوقا حاسما على

على كورنى فى هذا المجال ٠

أما موليير Molière (١٦٢٢ ــ ١٦٧٣). فهو عبقرى الملهاة فى فرنسا وينافسه فى هذه القمة شكسبير فى انجلترا ، برع فى تحليل الشخصيات ، وفى خلق المواقف الطريفة التى تثير الضحك ومن أبرز مسرحياته (طرطوف) و(البخيل) و(مدرسة المتزوجات) و(مدرسة المتزوجين) و(امفيتزيون) ٠

وعظمة هؤلاء المبدعين فى أن أعمالهم كانت ولاتزال بمثابة نقلة فكرية حضارية ، وأصحاب الفضل فى تطوير الفكر الانسانى ٠

ومن التحف الرائعة التى خلدت لويس الرابع عشر قصر ڤرساى ، وضاحيته ڤرساى فقد جمع فى ذلك القصر من فنون الرسم والديكور مالايزال حتى الآن مدرسة فنية عالية المستوى ، بما حواه من رسوم ، وأثاث وقاعة للمرايا هى مزار من يهبط فرنسا ٠ ومع أن فرنسا فى عهده خاضت سلسلة من الحروب العديدة المرهقة ، فان ما أقدم عليه لويس الرابع عشر عن أعمال حضارية عظيمة قد خلده فى التاريخ ٠

النظام الاقتصادى :

ويعتبر " كولبيرت Colbert " المنظم الحقيقى للاقتصاد الفرنسى سواء من الناحية الداخلية او الخارجية فقد تسلم الوزارة والخزينة لاتتلقى من أموال الضرائب الا النزر اليسير حيث كانت تذهب الضرائب الى جيوب المختلسين والجباة ، فنجح فى علاج هذه المشكلة ولكن جزئيا ، وخفض الضرائب عن الفلاحين كما خفف من الضرائب المفروضة على الصادرات ورفع

قيمتها على الكماليات والمستورد من الخارج ، وبذلك أقام الحماية الجمركية على إنتاج البلاد وشجع صادراتها ، كما عنى باصلاح الطرق وتنشيط الحركة الاقتصادية وشق الترع ليرتفع الانتاج الزراعي . وكانت الفلسفة الاقتصادية التى تبناها كولبير تقوم على اساس ان قوة الدولة فى اقتصادها وانتاجيتها المرتفعة وصادراتها المتفوقة . وركز على جوانب الانتاج التى مهر فيها الفرنسيون وهى الصناعات الدقيقة والفنية عالية المستوى عالميا .

وعمل كولبير على أن ترتفع فرنسا الى مستوى العصر وأساليبه ، وحيث ان عصر النهضة تميز بحركة الاستعمار فقد عمل ان تدخل فرنسا هذا الميدان فتشكلت شركة الهند الشرقية الفرنسية من أجل بناء امبراطورية استعمارية فرنسية واللحاق بانجلترا وهولندة واسبانيا والبرتغال الاستعمارى . وتطلع كولبير الى مصر بعد أكثر من قرن (الحملة الفرنسية على مصر) .

لقد أثرى كولبير الخزينة الفرنسية بالأموال ولكن حروب لويس الرابع عشر ابتلعت الغالبية العظمى من جهده حتى لقد قيل ان ذلك من أسباب الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩ م .

حروب لويس الرابع عشر :

وقعت فى عهد لويس عدة حروب أهمها : حرب الوراثة فى الأراضى المنخفضة (١٦٦٧ ـ ١٦٦٨) والحروب الفرنسية الهولندية (١٦٧٢ ـ ١٦٧٩) ، حرب البلاتين (١٦٨٨ ـ ١٦٩٧) ، حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٢ ـ ١٧١٣) . وسنتناول فيما يلى هذه الحروب بنوع من الايجاز .

حروب الوراثة (الأراضي المنخفضة) (١٦٦٧ ـ ١٦٦٨) :

كانت فرنسا كلما شعرت بقوة وتفوق انطلقت متوسعة على حساب جاراتها وكان من العوامل الرئيسية التى كانت تدفعها الى ذلك انها كانت محاطة بأملاك أسرة الهابسبورج المحتكرة لمنصب الامبراطورية ومنها أيضا ملك اسبانيا . ثم ان ملك اسبانيا كان فى نفس الوقت صاحب الاراضى المنخفضة وبذلك كانت فرنسا ترى فى ذلك اخلالا بالتوازن الدولى وتهديدا لفرنسا من شمال وجنوب ـ حقيقة سبق وان تعهدت فرنسا بعدم مطالبتها بوراثة عرش اسبانيا الا ان لويس الرابع عشر وجد فى وفاة فيليب الرابع ـ ملك اسبانيا ووالد ملكة فرنسا زوجة لويس الرابع عشر ـ فرصة لوراثة العرش الاسبانى فكان ان بعث بقواته فى اتجاهين : نحو الاراضى المنخفضة وعبر البرانس وأحرز انتصارات أزعجت الدول الاخرى فتشكل حلف ضده من بريطانيا والسويد وهولنده ، ولعبت الاخيرة الدور الرئيسى العسكرى الدبلوماسى فى الحد من انطلاقة لويس الرابع عشر حتى عقد صلح " إكس لاشابيل Aix La Chapelle " (١٦٦٨) وبمقتضاه حصلت فرنسا على مجموعة من المدن الهامة من الأراضى المنخفضة (الأسبانية) :

لم يكن ماحصل عليه لويس الرابع عشر بمقتضى صلح آكس لاشبيل ليرضيه وحيث أن هولندة كانت هى الخصم الذى جد من قدرته على الحصول على المزيد من المكاسب فقد عمل على عزلها ، فنجح فى عقد معاهدة تحالف سرية مع شارل الثانى ـ ملك انجلترا ـ ضد هولندة التى كانت منافسا شديدا لانجلترا فى مجال التجارة ، فضلا عن امتلاك هولندة لاسطول قوى .

كذلك استطاع لويس الرابع عشر أن يكسب السويد الى جانبه ، وشن لويس الرابع عشر حملة كبيرة على هولندة جعلت حاكم هولندة يستسلم لمطالب لويس الرابع عشر الا ان الشعب ثار عليه، خاصة وأن الاسطول الهولندى كان قد انتصر على الاسطولين الانجليزى والفرنسى ، ونجحت الثورة فى إسناد الحكم الى وليم اورنج William Orange ، وفتح الهولنديون السدود فأغرقت مياه البحر مناطق واسعة ارغمت القوات الفرنسية على الانسحاب ، كما دخلت الامبراطورية الرومانية المقدسة وأسبانيا الحرب ضد لويس الرابع عشر بينما انسحبت بريطانيا من حلفها مع فرنسا ، واصبح لويس الرابع عشر فى موقف حرج ففضل التوصل الى تسوية .

أدت مفاوضات الصلح الى عقد معاهدة " نمويجن " ، وبمقتضاه حصل لويس الرابع عشر على مكاسب على حساب اسبانيا وليس على حساب هولندة ، وحصل على الالزاس وستراسبورج ، ولكن مكاسب لويس الرابع عشر لاتتناسب مع ضخامة خسائره البشرية والمادية .

حرب البلاتين (١٦٨٨ ـ ١٦٩٧) :

كان لويس الرابع عشر طموحا ، وكان لايهدأ على أمل الحصول على مكاسب ترضى هذا الطموح ، وجاءته فرصة جديدة عندما توفى شارل أمير البلاتين حيث طالب بحكم الامارة لصالح زوجة أخيه التى كانت شقيقة شارل ونظرا لأن الدول الرئيسية فى أوربا كانت تخشى من طموح لويس الرابع عشر فقد شكلت حلفا ضده (حلف أجزبرج) نظمته هولندة وكان هذا الحلف يضم الى جانب هولندة كلا من الامبراطور الدولة

الرومانية المقدسة وأسبانيا وبعض الولايات الألمانية ، انضمت اليه بريطانيا فقد قامت ثورة الشعب البريطانى ضد ملكه جيمس الثانى (الكاثوليكى) ففر من البلاد وتحالف مع لويس الرابع عشر بينما تولى العرش الانجليزى " وليم اورنج " الخصم العنيد للويس الرابع عشر ٠

وعلى عادة لويس الرابع عشر أحرز فى اول الأمر انتصارات على خصومه واستعد لغزو بريطانيا الا ان الاسطول الانجليزى انتصر على الاسطول الفرنسى فقضى على المشروع وضاعت نهائيا آمال جيمس الثانى فى العودة الى عرشه ، الا ان الاطراف المتقاتلة كانت قد ارهقتها الحرب فتوصلت الى صلح رزويك (١٦٩٨) ويقضى بما يلى :ـ

١ ـ تخلى فرنسا عن مكاسبها باستثناء الألزاس وبعض المواقع الأخرى ٠

٢ ـ اعتراف فرنسا بوليم اورنج ملكا على انجلترا ٠

و مرة اخرى كانت مكاسب الحرب أقل بكثير من الخسائر التى تكبدتها فرنسا فى الارواح والأموال ٠

حرب الوراثة النمساوية (١٧٠٢ ـ ١٧١٢) :

لاتكاد حرب البلاتين تنتهى حتى لاحت بوادر أزمة كبيرة أوروبية حيث كان شارل الثانى ملك اسبانيا المريض ينتظر الموت من وقت لاخر بينما كان المطالبون بالعرش الاسبانى عديدون على رأسهم دون انجو

(حفيد لويس الرابع عشر) وليوبولد الاول امبراطور الدولة الرومانيـــة المقدسة وأمير باڤريا . وقد حدث أن أوصى الملك شارل الثانى بأن يخلفه بعد وفاته دون انجو الأمر الذى تعتبره الدول الاوروبية ــ بصفـــة عامة ــ انه إخلال خطير بالتوازن الدولى حيث أن اسرة واحدة (اســـرة البوربون الفرنسية) تصبح حاكمة فى فرنسا وفى اسبانيا وماكان يتبـــع اسبانيا من مستعمرات فى العالم الجديد . فكان ان تشكل التحالـــف الاعظم فى ١٧٠١ ضد فرنسا وكان يتكون من الامبراطور الدولة الرومانية المقدسة وانجلترا وهولندة والبرتغال ودوقية براندنبرج ودوقية ساڤـــوى .

وخلال هذه الحرب نزلت بالجيوش الفرنسية الهزيمة تلو الهزيمة على يد القائد الفذ الانجليزى مارلبورو Marlborough حتى اضطـــر لويس الرابع عشر الى السعى الى عقد الصلح، حيث تهيأت بعض الظروف المشجعة على وقف القتال ، حيث أدت وفاة الامبراطور الى أن يتولى عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة الامبراطور شارل وكان فى نفس الوقت مرشحـــا لعرش اسبانيا الامر الذى ازعج الدول الاوربية الاخرى التى ترفض ان تجمع أسرة واحدة العرشين الامبراطورى والاسبانى فى آن واحد ، كما أن انجلترا وهولندة كانتا قد سئمتا الحرب وتفاوضتا مع فرنسا وخرجتا من الحـــــرب وأخيرا عقد (صلح اوتراخت) فى ١٧١٣ الذى نص على مايلى : ــ

١ ــ اسناد عرش اسبانيا الى فيليب حفيد لويس الرابع عشر ، وتتبعــــه المستعمرات الاسبانية بشرط عدم الجمع فى المستقبل بين عرشى اسبانيا وفرنســـا .

٢ ــ يحصل الامبراطور على الاراضى المنخفضة الاسبانية (بلجيكا) وعرفت

منذ ذلك الوقت بالاراضى المنخفضة النمساوية .

٣ـ يحصل الامبراطور على ميلان وسردينيا ونابولى وكانت كلها تابعة لأسبانيا ، وأصبحت الامبراطورية الرومانية المقدسة مهيمنة على مقدرات (ايطاليا) .

٤ ـ توسع املاك امبراطور براندنبرج وأصبح يعرف باسم ملك بروسيا .

٥ ـ تحصل انجلترا على جبل طارق وبعض المواقع الهامة فى كندا وغيرها وأصبحت انجلترا بذلك دولة عظمى .

يعتبر عصر لويس الرابع عشر عصر نهضة حضارية عظمى فى فرنسا نظرا لماقام به من اعمال حضارية رائعة لاتزال حتى الان من معجزات الفن الحديث . ورفع من قدر الملكية الفرنسية الى درجة (الحق الإلهى) وان الملك هو الدولة ،ووضع أسس النظام الوزارى بحيث يصبح كل وزير مسئولا أمامه ، وقضى على مكانة النبلاء واصبحوا فقط فى خدمة الملك ، ووجه ضربة قاصمة للهيجونوت فى فرنسا وألغى مرسوم (نانت)واضطر الهوجونوت الى الهجرة من فرنسا الى مختلف أجزاء العالم .فكان ذلك من أسباب تدهور الاقتصاد الفرنسى لما كان معروفا عن الهوجونوت من مهارات فى الاعمال الفنية والصناعية .

الفصل الثامن

انجلترا والكنيسة الانجليكانية

أسرة تيودور Tudors

انتهت حروب الوردتين بانتصار هنرى لنكستر Lancaster على بيت يورك فى موقعة بوسورث Bosworth فى أغسطس ١٤٨٥ ، وتأسيس أسرة تيودور التى استمرت تحكم أنجلترا حتى اوائل القرن السابع عشر ١٦٠٣ .

ومؤسس هذه الاسرة هنرى السابع او هنرى لنكستر ١٤٨٥ - ١٥٠٩ استطاع أن يفيد من السأم الذى اعترى اهل البلاد وضجرهم من الحروب الاهلية الطويلة ، فقضى على منافسيه فى السلطة والمطالبين بالعرش أى الذين يدعون حقوقا عليه مثل ارل وارويك Earl Warwick ولامبرت سيمل Lambert Simnel وبركين واربك Perkin Warbeck ، ولما كان البرلمان قد كسب حقوقا عديدة أثناء حروب الوردتين ، فقد وجد هنرى السابع من حسن السياسة أن يبقى على البرلمان وأن يستخدمه فى تأييد سلطانه ، فابتدع بهذا العمل الخطة التى سار عليها خلفاؤه من ملوك التيودور . واستصدر هنرى السابع بواسطة البرلمان القوانين التى مكنته من توطيد مركز الملكية ، وأهم هذه القوانين أربعة : القانون الخاص بتأسيس قاعة النجم Star Chamber سنة ١٤٨٧ وكانت بمثابة محكمة ذات سلطة واسعة لتعقب النبلاء ومراقبتهم وإضعاف نفوذهم وقانون لتقديم المعارضين لحكومة الملك والذين يؤيدون المطالبين بالعرش ، الى المحاكمة بتهمة الخيانة سنة ١٤٩٥ ، وقانون لمنع النبلاء من أن يجمعوا الاتباع والاعتماد على هؤلاء فى مهاجمة الخصوم وازكاء نار الحرب الاهلية سنة

١٥٠٤ ، وقانون لفرض سيطرة الملكية المركزية على شئون الصناعة سنة ١٥٠٤ .
وبفضل هذه القوانين اذا استطاع هنرى السابع أن ينشأ ملكية ذات سلطة
تامة ، وتكاد تكون مطلقة من الوجهة العملية . وفى ظل هذا النظام
العملى لم يكن من المنتظر ظهور نظرية الملكية المطلقة كما عرفتها اوروبا
الغربية .

ب - هنرى الثامن والاصلاح الدينى :

وكما استخدم هنرى السابع البرلمان فى استصدار القوانين التى أيدت
سلطان الملكية استخدم ابنه هنرى الثامن ١٥٠٩ - ١٥٤٧ البرلمان
كذلك فى استصدار القوانين التى ساعدت هذه المرة على انتشار الاصلاح
الدينى وفصلت الكنيسة فى انجلترا عن كنيسة روما .

وكان انتشار الاصلاح الدينى بالشكل الذى أفضى الى انفصال الكنيسة فى
انجلترا عن الكنيسة فى روما يرتبط بمسألتين هامتين نشأتا من الظروف
السياسية التى اعطت الامبراطور شارل الخامس التفوق السياسى فى أوروبا
عقب هزيمة فرنسوا الاول فى بافيا سنة ١٥٢٥ ، كما نشأتا من رغبة الملك
هنرى الثامن فى أن يتخلص من زوجته كاترين الارغونية والزواج من آن بولين
Anne Boleyn .

وتفصيل ذلك أن هنرى السابع الملك السابق كان قد زوج ابنه الاكبر
آرثر من كاثرين الارغونية ، ابنة فردنند وايزبلا ، وعمه شارل الخامس . ولكن
أرثر توفى ومن المحتمل قبل الدخول بزوجته ، ولما كان هنرى السابع يريد
استبقاء العلاقات الطيبة مع الملوك الكاثوليك ، فقد زوجها من إبنه الآخر

هنرى بعد أن حصل من البابا يوليوس الثانى على قرار يبيح هذه الزيجة .
وتم الزواج فعلا عقب اعتلاء هنرى الثامن العرش سنة ١٥٠٩ . ولكن العلاقات
لم تلبث أن تغيرت بين هنرى الثامن وشارل الخامس لاسباب سبق ذكرها
عند الكلام عن الحروب الايطالية . وتلق الملك ووزيره كردينال ولزى Wolsy
عندما انهزم فرنسو الاول فى بافيا سنة ١٥٢٦ وأحرز الامبراطور السيطرة
السياسية فى أوروبا ، وأخضع البابا كلمنت السابع لنفوذه ، الامر الذى
جعل هنرى الثامن يبحث عن اتجاه جديد فى صالح مملكته ، وانفصمت عرا
الصداقة بينه وبين الامبراطور . وعندئذ لم يجد الملك بأسا من اتباع
ميوله الخاصة . وكان قد وقع من مدة تحت تأثير احدى سيدات البلاط ، آن
بولين ، فأراد الآن ان يتزوجها ١٥٢٧ ، وقرر أن يطلق كاثرين الارغونية
واستند الملك فى طلب " الطلاق " من كاثرين الى عدم ارتياح ضميره لمعاشرة
كاترين بسبب صلة الرحم الدقيقة بينهما ، ولانه يريد ولدا ذكرا يرث العرش
من بعده ، ولم يكن لكاترين سوى ابنة واحدة هى مارى . وبهذا الشكل كان
مشروع طلاق الملك ، لحد كبير ، نتيجة مباشرة لذلك الانفصال الدبلوماسى
الذى حدث بين بلاطى الإمبراطور شارل الخامس والملك هنرى الثامن .

وحاول كردينال ولزى Wolsey أن يستصدر من روما قرارا يلغى
به قرار البابا يوليوس الثانى الذى أباح زواج هنرى من كاثرين . ولكنه
أخفق فى مسعاه لان البابا كلمنت السابع كان كما ذكرنا خاضعا لنفوذ الامبراطور
ولا يمكنه إغضابه . ولما كان ولزى هو صاحب الرأى فى الاتفاق مع روما لاستصدار
قرار الإلغاء فقد غضب عليه الملك وعزله وصادر املاكه واتهمه بالخيانة . ولكن
ولزى توفى قبل تقديمه للمحاكمة فى نوفمبر سنة ١٥٣٩ . وبعد محاولات
فاشلة للتأثير على روما استخدم الملك رجلا كان فى خدمة كردينال ولزى ،

هو توماس كرمول Cromwell ، وكان هذا أصلب عودا من الكردينال ومبدأه الغاية تبرر الواسطة واستمر فى خدمة الملك حتى أعدمه هذا فـــى يوليو سنة ١٥٤٠ .

فى أول مقابلة مع الملك استطاع توماس كرمول أن يقنع هنرى الثامـــن باتباع الخطة التى أسفرت فى آخر الامر عن فصل الكنيسة فى انجلترا عـــن كنيسة روما ، ووضعها تحت سيادة الملك . وذلك بأن اشار كرمول على الملك أن يحذوا حذو الامراء الالمان الذين تخلصوا من سلطان البابوية ونبذوا سيادة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وأسسوا كنيسة أهلية ، فيسعى الملـــك بمساعدة البرلمان لانشاء كنيسة أهلية وطنية يكون الملك رئيسها ، وعندئـــذ تستطيع هذه الكنيسة المنفصلة تحقيق رغباته فى مسألة الطلاق من كاثريـــن والى جانب هذا ، فان الانفصال من شأنه أن يوحد السيادة التى كانـــت تقتسمها فى البلاد سلطتان ، هما سلطة الكنيسة المركزة فى شخص رئيسهـــا الاعلى وهو البابا ، وسلطة الملك .فقرر هنري الثامن العمل بهذه الخطـة التى تنفذ بها مآربه الثلاثة الكبرى : الخلاص من كاثرين الارغونية ، والزواج من آن بولين ، وملء خزائنة بالاموال التى كانت فى الاصل ترسلها الكنيســة الى روما ، والتى يتحتم الان اعطاؤها الي الملك بوصفه رئيس الكنيسة الاعلى ؛ ثم توحيد سلطانه فى الدول الحديثة بأن يفرض سيطرته وسيادته على كل رعاياه من علمانيين ودينيين :

ويلاحظ فى سير الاصلاح الدينى فى عهد هنرى الثامن الامور الاتية :

أولا ــ أن البلاد نفسها كانت تشعر وقتئذ شعورا قويا بضـــرورة الإصلاح والسبب فى هذا تنبه الاذهان الذى نجم من انتشار حركـــة

إحياء العلوم والمعارف على أيدى مصلحى اكسفورد خصوصا ، ثم وجود مساوئ كثيرة فى الكنيسة بانجلترا حيث انعدام الشعور الدينى الصحيح عند رجال الكنيسة ورؤسائها مثلهم فى ذلك مثل الباباوات انفسهم ورجال الكنيسة فى البلاد الاخرى ، ثم انتشار المفاسد فى الاديرة ، وتوفر الادلة على وجود هذه المفاسد من ايام هنرى السابع (كانتشار الجهل . وكون رجال الدين من الحثالة وعابرى الطريق ، وشحاذة الرهبان) . وقد تبع هذه المفاسد . أن دخل الخطأ على تلقين العقيدة الكاثوليكية ذاتها . حيث اصبح الغفران عملية مالية بحته . وصار الاهتمام بمظاهر العبادة الخارجية فقط . الى غير ذلك . ولقد بدأ إصلاح بعض هذه المساوئ فى عهد هنرى السابع .

ثانيا ــ أن الرأى فى البلاد كان يؤيد الملكية فى كل مساعيها لتوطيد سلطانها ، املا فى استتباب الامن ، وعدم استئناف الفوضى التى قاست منها البلاد اثناء حروب الوردتين السابقة ، وكذلك ، كان يغضب البلاد أن ترى قوة أجنبية ــ هى البابوية فى روما ــ تتدخل فى حياة البلاد الدينية على نحو ماكانت تفعله ، ولذلك صار من المنتظر عندما قرر ملوك التيودور السير فى طريق الاصلاح ، أن يستطيع هؤلاء إنجاز الاصلاح المطلوب بواسطة البرلمان .

ثالثا ــ أن أحدا لم يفكر ، مع وجود المصلحين الذين أرادوا اصلاح الكنيسة ، فى مهاجمة العقيدة الكاثوليكية او المساس بها ، كما أن البرلمان كان مستعدا لتأييد الملكية فى الاصلاح ، مادام هذا الاصلاح لايتعرض للعقيدة . وظل الحال على ذلك ، حتى اذا انحازت أكثرية البلاد الى المذاهب الجديدة فيما بعد استطاع خلفاء هنرى الثامن إدخال

التغيير المطلوب على العقيدة ذاتها .

جـ - برلمان السبع سنوات والاصلاح الديني :

منذ نوفمبر ١٥٢٩ اجتمع البرلمان الذى اشتهر باسم برلمان الاصلاح أو برلمان السبع سنوات لاستمرار انعقاده مدة سبع سنوات متتالية . وقد أصدر هذا البرلمان عدة قوانين للاصلاح موجهة ولإخضاع رجال الدين فى انجلترا لسلطة الملك الذى اعطى فى سنة ١٥٣١ لقب حامى الكنيسة ورجال الدين والرئيس الاعلى وحده للكنيسة ولرجال الدين فى انجلترا، بالدرجة التى تسمح بها القوانين المسيحية. ان هنرى الثامن كان يقصد فى هذا الحين نبذ سيادة البابا العليا على الكنيسة ، وكما اراد ان يمنع رجال الدين فى انجلترا من معارضة رغباته. وفى سنة ١٥٣٢ اشتدت الحملة لاخضاع رجال الكنيسة لسلطة الملكية ، فأصدر البرلمان قوانين لمنع ارسال الاموال الى روما ، ولمنع الكنيسة فى انجلترا من استصدار اية قوانين أو أوامر او تنظيمات متعلقة بالكنيسة من غير موافقة الملك . ولتحريم تعيين الاقارب والاصهار فى الوظائف الكنسية من غير موافقة الملك ثم لإزالة بعض المساوئ الأخرى .

وفى سنة ١٥٣٣ عين الملك رئيسا لاساقفة كانتربرى توماس كرانمر Cranmer على الرغم من امتناع البابا كلمنت السابع عن الموافقة على تعيينه . ولما كان هنرى الثاني قد تزوج من آن بولين سرا منذ يناير

١٥٣٣، ومن المنتظر ان يوافق كرانمر على هذا الزواج . ويريد الملك أن يمنع زوجته القديمة كاثرين الارغونية من ارسال قضيتها الى روما للفصل فيها فقد اصدر البرلمان قانونا لمنع استئناف القضايا في روما . وفي ٢٣ مايو ١٥٣٣ إعلن كرانمر الغاء زواج هنرى الثامن من كاثرين الارغونية وفي ٢٨ مايو قرر كرانمر مشروعية زواج الملك من آن بولين – وقد توجت هذه ملكة على انجلترا . وفي يوليو ١٥٣٣ اصدر البابا قرار الحرمان ضد هنرى الثامن . وأعلن في مارس ١٥٣٤ أن زواج هنرى الثامن من كاثرين لايزال قائما .

أما هنرى الذى كان قد انجب من زوجته آن بولين ابنته الياصابات في سبتمبر ١٥٣٣ . فقد أجاب على هذا بأن استصدر أولا من البرلمان قانونا يجعل الوراثة من بعده لاليصابات فألغى بذلك حق ابنته مارى من زوجته الاولى كاثرين الارغونية على اعتبار ان مارى قد ولدت خارج نطاق الزوجية الشرعية . وفي نوفمبر ١٥٣٤ استصدر من البرلمان أيضا قانون السيادة العليا The Act of Supremacy الذى يعلن ان الملك " عدلا وشرعا هو وكما يجب ان يكون ، الرئيس الاعلى للكنيسة في انجلترا" وقد اعطى هذا القانون الى الملك كل السلطات القانونية والسياسية التى كان البابوات يتمعون بها سابقا بانجلترا . ومع ان هنرى الثامن لم يتطلع بفضل هذا القانون الى ممارسة حق تغيير العقيدة ذاتها ، فقد كان من ناحية أخرى يرى من حقه إصلاح القانون الكنسى والسيطرة على التشريع في الكنيسة والاستئثار بملاحظة النظام والهيمنة على شئون الكنيسة . وقد تدعم هذا القانون بقانون آخر يعتبر من الخيانة مناقشة هذه السلطات أى معارضتها ويعاقب في صراحة كل من ينقد بشىء شخصى الملك والملكة .

وكان من المنتظر بعد هذا الانفصال الذى وقع بين الكنيسة فى انجلترا والكنيسة فى روما أن تعمل الملكية للقضاء على المصدر الاخير للسلطة الذى تعتمد عليه البابوية فى تأييد نفوذها فى انجلترا وهو الأديرة فقد كان للاديرة الحق فى ارسال ممثليها الى مجلس اللوردات الانجليزى . وكان لها أملاك واسعة، وعلى ذلك فقد استصدر البرلمان فى مارس ١٥٣٦ قانونا بحل الاديرة الصغيرة وعددها ٣٧٦ ديرا استولى الملك على ايراداتها . ثم استصدر البرلمان فى سنة ١٥٣٩ قانونا آخر يحل الاديرة الكبيرة وعددها ٢٠٠ ديرا . وكان مجموع الايرادات التى حصل عليها الملك من هذا كله حوالى ١٣٥,٠٠٠ جنيها سنويا .

على أنه مما تجب ملاحظته أن هنرى الثامن وقد دعم سيادته على الكنيسة فى انجلترا واستولى على ايرادات الاديرة فملأ خزينته بالأموال لم يشأ أن يسير فى طريق الاصلاح الى أبعد من ذلك . وهذا بالرغم من ذيوع المذاهب المصلحة للوثرية ، الكلفينية ، الزونجيلية ، فى انجلترا فى السنوات الاخيرة ، وبالرغم كذلك من وجود بعض الرجال الذين كان يهمهم أن يتم الانفصال عن روما نهائيا بادخال تغيير على العقيدة ذاتها ، فتزول بذلك كل فرصة لعودة الوئام مع روما ، وهو الوئام الذى كانوا يخشون أن يلحقهم الأذى بسببه . ومن هؤلاء اذاكان توماس كرمول. ولكن هنرى الثامن بقى متمسكا بالعقيدة الكاثوليكية . وكان كل مارضى به ان تتطهر طقوس الكنيسة مما يشوبها من البدع ، كما أمر بترجمة الكتاب المقدس الى الانجليزية وقد استخدمت ترجمة وليم تنديل Tyndale فى الكنيسة ، وحطم كثيرا من التماثيل . أما العقيدة ذاتها فقد تأيدت

في قانون المواد الست Statute of Six Articles للقضاء على اختلافات الرأى فى العقيدة ، أصدره البرلمان فى سنة ١٥٣٩ ليقر العقيدة الكاثوليكية فى مسائل القربان والاعتراف ٠

وكان من الاسباب التى منعت هنرى الثامن أن يتناول العقيدة ذاتها بالتعديل او التغيير فى السنوات التالية ، وقوع الاضطرابات العديدة التى صحبت حركة الإصلاح فى انجلترا ، والتى كلفت الملكية جهدا كبيرا للقضاء عليها ، ثم تبدل الظروف السياسية عند ما تحول الملك فى علاقاته الخارجية عن مساعدة البروتستنت أعضاء حلف شمالكلد وصار يهتم بأمر النضال القائم بين فرنسوا الاول وشارل الخامس فى ايطاليا فلم تعد هناك اذا ضرورة لاستمالة البروتستنت فى المانيا ٠ اضف الى هذا ان هنرى الثامن كان قد تخلص من آن بولين وتزوج بعدها من چين سيمور ثم آن كليف الالمانية ، ثم من كاثرين هوارد سنة ١٥٤٠ وهذه كانت كاثوليكية تخلص منها الملك بإعدامها سنة ١٥٤٢ ، ثم تزوج من زوجته الاخيرة كاثرين بار Parr ، وكان كل ما اهتم به بعد ذلك هو تعديل نظام الوراثة فاستصدر فى سنة ١٥٤٣ من البرلمان قانونا جعل الوراثة من نصيب ادوارد ابنه من چين سيمور ، فاذا مات هذا من غير وريث ، خلفته اخته مارى ابنة كاثرين الارغونية ٠ فاذا لم يكن لها هى كذلك وريث ، خلفتها أختها الياصابات ابنة آن بولين٠ والمهم فى هذا القانون أنه اعترف بشرعية مارى — اى اعترف ببنوتها الشرعية وهى ابنة كاثرين الارغونية — وفى ٢٨ يناير ١٥٤٧ توفى هنرى الثامن ٠

د — البروتستنتية فى عهد ادوارد السادس ١٥٤٧ — ١٥٥٣ :

خلف ادوارد السادس والده على العرش ، وهو ابنه من چين سيمور

وكان صبيا يبلغ التاسعة من عمره ولما كان من المسلم به فى عهد ملكية التيودور أن الملك يؤثر بنفوذه الشخصى على شئون الحكم ، فقد صار واضحا أن السياسة الدينية فى المستقبل سوف ترتبط الى حد كبير بنوع التربية التى ينشأ عليها الملك الصغير . وقد اختار هنرى الثامن قبل وفاته لتعليم ولده أدوارد معلمين من أنصار النهضة والعلوم الحديثة ، كما أنه رتب مجلسا للوصاية على ولده كان اكثر اعضائه ايضا من المتأثرين بالعلوم الحديثة والذين يميلون للآراء المصلحة ولعل هنرى الثامن كان يقصد من ذلك أن لايسيطر على الحكم فى عهد الوصاية على ولده جماعة من المتمسكين بالنظام القديم فيغيرون السياسة الدينية التى سار عليها والتى أوجدت النظام الكنسى المعروف فى عهده .ولو انه كان من المرجح كذلك ان هنرى الثامن لابد أن يكون قد ادرك فى الوقت نفسه أن هناك نتائج محتملة اخرى لتشكيل مجلس من الاوصياء الميالين للاصلاح والمتأثرين بالآراء الحديثة . وأهم هذه النتائج اعادة النظر من جديد فى النظام الكنسى الذى وضعه والسير شوطا أبعد فى طريق الاصلاح الدينى. وقد ساعدت الظروف جماعة المصلحين عندما تقرر انشاء منصب حامى المملكة Protector وأختير لهذا المنصب شقيق والدة الملك الدوق سومرست Somerset وكان هذا من الذين يؤيدون الاصلاح ، ويعتنق مذهب كلفن ووجد سومرست فى رئيس الاساقفة كرانمر عضد كبيرا وعلى ذلك سار الاصلاح الدينى فى انجلتره شوطا بعيدا حتى تناول بالتغيير العقيدة ذاتها . واراد سومرست وكرانمر استخدام سيطرة الملك وسيادة الملكية العليا التى تقررت على الكنيسة فى ادخال هذا التغيير ، اى تأييد المبدأ الذى انطوى عليه قانون السيادة العليا كما وضعه هنرى الثامن وكان يفهمه دائما وذلك فى مسائل وشئون لم يكن هنرى الثامن نفسه يريد أن يتعرض لها بأى تبديل

أو تغيير جوهرى فى حياته ٠

وفى الفترة التى استأثر اثناءها سومرست بالحكومة ، صار تحطيم الصور والتماثيل والغيت الطقوس الكاثوليكية وألغى القداس ، وابيح زواج القسس ثم تقرر قراءة الكتاب المقدس باللغة الاهلية (الانجليزية) الى جانب اللاتينية ٠ ووضع كتاب جديد للصلاة (١٥٤٩) The English Book of Common أعدته لجنة تحت إشراف كرانمر ثم أصدر البرلمان فى يناير سنة ١٥٤٩ (القانون الاول للعقيدة الواحدة او المذهب الواحد) The First Act of Uniformity وهو يقضى بضرورة التزام شكل او نظام واحد للعبادة فى انحاء المملكة وبمقتضاه ارغم رجال الدين على استخدام كتاب الصلاة الجديد ٠ وهذا الكتاب الجديد للصلاة الى جانب أنه صدر باللغة الاهلية كان أقرب من ناحية العقيدة الى اللوثرية منه الى الكاثوليكية ٠ وتوعد قانون المذهب الواحد ، المخالفين من رجال الدين بالعقوبات الصارمة ٠

وكانت حكومة سومرست تواجه صعوبات كثيرة : منها العداء المستحكم بين انجلترا وفرنسا ٠ ولو أن فرنسا كانت مشغولة وقتئذ بحروبها مع شارل الخامس ومن أهمها أو أخطرها الاضطرابات الداخلية فى انجلترا ذاتها والتى نشأت من التغييرات الدينية غير المألوفة من ناحية ، ثم من انتشار ما يعرف باسم Enclosures حركة (اغلاق الحقول) من ناحية اخرى ، وسبب هذه الحركة أن أصحاب الارض بدلا من أن يزرعوها فضلوا ان يحولوها الى مراع للأغنام حتى يصدروا أصوافها فأخرجوا صغار المزارعين من الارض واقاموا اسياجا حولها ، فتعطل الكثيرون من

العمل . وانتشرت المجاعة ، وسادت الفوضى ، وقامت الثورات فى الاقاليم الشرقية والغربية خصوصا . وزاد هذه الفوضى ماكان قد سبق من حـل الاديرة واستيلاء كبار الملاك على الاراضى التى كانت لها . ولما بدأ سومرست يظهر العطف على صغار المزارعين ، ويوجه اللوم لكبار الملاك وينقد أعمالهم تغير عليه النبلاء الذين عدوه مسئولا عن هذه الاضطرابات ، وتآمروا عليه فسقطت حكومته فى منتصف اكتوبر سنة ١٥٤٩ . وانتهى المطاف أخيرا باعدامه سنة ١٥٥٢ .

وبسقوط سومرست ألغيت الحماية Protectorate وانتقل النفوذ الأكبر الى دوق نورثمبرلاند Northumberland . وبدأ هذا عمله بأن أنهى الوصاية Regency التى رتبها هنرى الثامن ، فتسلم الملك أدوارد مهام منصبه ، ولو أن السيطرة بقيت فى يد دوق نورثمبرلند .

وكان نورثمبرلند أشد اندفاعا فى طريق الاصلاح الدينى من سومرست ويؤيده كرانمر فى التغيير الذى أراد ان يدخله على العقيدة فأصدر البرلمان قانونا فى سنة ١٥٥٠ يؤيد كتاب الصلاة الذى اعتمده قانون سنة ١٥٤٩ ، ويقضى باستبعاد واتلاف كتب الصلاة الاخرى ، وفى سنة ١٥٥٢ ، اصدر البرلمان القانون الثانى للمذهب الواحد Second Act of Uniformity يفرض على رجال الدين باستخدام كتاب صلاة جديد أعده كرانمر بمساعدة جماعة من المصلحين . والجديد فى هذا القانون أنه ينص على عقاب مخالفيه من رجال الدين والعلمانيين على السواء . وأما حملة تحطيم الصور والتماثيل فقد استمرت على شدتها . وفى سنة ١٥٥٢ كذلك اصدر البرلمان قانونا يتهم بالخيانة كل من يتصدى لمعارضة التاج

ولو كانت هذه المعارضة شفوية وكان الغرض من هذا القانون تأييد سلطان الملكيـــة .

ولكن لم يلبث ان صادف نور ثمبرلند نفس الصعوبات التى صادفهـــا سومرست من قبل ، بسبب استمرار حركة اغلاق الحقول ، وتذمر شطر كبـير من سواد الناس من جراء التغييرات الدينية الجديدة . وزيادة علـــى ذلك فقد اراد نور ثمبرلند تغيير الوراثة فى صالح چين جراى Jane Grey وهى حفيدة احدى شقيقات هنرى الثامن ، وبدعوى ان مارى واليصابات ابنتين غير شرعيتين . وأراد زوثمبرلند ان يزوج چين جراى هذه من أحـــد أبنائه . ولكن هذه المؤامرة فشلت عند وفاة ادوارد السادس فى يوليـــو ١٥٥٣ ، وانقلب ضد چين جراى أنصار الشرعية والناقمون من سواد الشعب على نور ثمبرلند ، وچين جراى ، التى كانت اعلنت ملكة انجلترا فى ١٠ يوليو ١٥٥٣ ، وقاموا الان لنصرة مارى الوريثة الشرعية . فألقى القبض علـــى نورثمبرلند . وتسلمت مارى زمام الحكم فى انجلترا .

هـ ــ مارى تيودور ١٥٥٣ ــ ١٥٥٨ :

وكانت مارى تيودور ابنة كاثرين الارغونية شديدة التمسك بالكاثوليكية وانحصرت رغبتها من مبدأ الامر فى هدم صرح الاصلاح الدينى فـــى انجلترا وإرجاع الكنيسة فى البلاد الى سابق عهدها كما كانت قبـــل النظام الكنسى الذى أوجده هنرى الثامن والتغييرات الدينية التى حصلت فى عهد ادوارد السادس . وارادت مارى تيودور استئناف العلاقـــات بين الكنيسة فى انجلترا ، والكنيسة الرومانية وقد أمكن تنفيذ هذه الرغبات

فى عهدها القصير على دورين .

الدور الاول ١٥٥٣ ــ ١٥٥٤ :

كان صاحب السيطرة فى هذا الدور ستفن جاردنر Stephen Gardiner أسقف ونشستر Winchester الذى يمثل سياسة هنرى الثامن ــ وفى هذا الدور أحرق كرانمر حيا مع عدة اساقفة من البروتستنت يزيدون على المائتين واستصدرت مارى تيودور فى البرلمان قانون الإلغاء الاول سنة ١٥٥٣ First Statute of Repeal وبفضله صار الغاء كتابى الصلاة الاول سنة ١٥٤٩ والثانى لسنة ١٥٥٢ ، كما ألغيت التغييرات التى ادخلت على العقيدة ، والاعتراف بزواج القسس اى أن مارى تيودور ألغت فى هذا الدور كل ما كان حصل من إصلاح فى عهد ادوارد السادس.

الدور الثانى ١٥٥٤ ــ ١٥٥٨ :

ويمتاز هذا الدور بزواج مارى تيودور من فيليب الثانى ملك اسبانيا بمقتضى معاهدة زواج وستمنستر Westminister فى ١٢ يناير سنة ١٥٥٤ كمايمتاز باستعلاء النفوذ البابوى على يد رسول البابا Legate Papal كردينال پول Pole الذى ارسله الى انجلترا البابا يوليوس الثالث. وعلى ذلك فقد شهد هذا السيد سنة ١٥٥٤ إلغاء ماكان قد حصل فى عهد هنرى الثامن من ضروب الاصلاح . فقد صدر قانون لاحياء قوانين الهرطقة القديمة Act Reviving the Heresy Law وفى سنة ١٥٥٥ صدر قانون الإلغاء الثانى Second Statute of Repeal وبفضله

ألغيت كل القوانين وغيرها التى صدرت سابقا ضد الكنيسة الرومانية من أيام هنرى الثامن بما فى ذلك Act of Supremacy قانون السيادة العليا لسنة ١٥٣٤ ، وكذلك القوانين التى صدرت فى عهد ادوارد السادس . وهذا كله مع استثناء واحد هام هو إبقاء القوانين المتعلقة بحل الاديرة ، بل انه بدلا من المساس بهذه القوانين التى صدرت سنة ١٥٣٦ لحل الاديرة الصغيرة ، ثم سنة ١٥٣٩ لحل الاديرة الكبيرة. ان قانون الالغاء الثانى الذى ذكرناه لسنة ١٥٥٥ حقوق اصحاب الاراضى والاملاك التى انتزعها هنرى الثامن ووزيره كرمول عند حل الاديرة ، واستحوذ النبلاء على قسم كبير منها فكان ذلك هو الثمن الذى دفعته مارى تيودور للنبلاء الانجليز فى نظير استئناف العلاقات الروحية والودية مع كنيسة روما وإرجاع السيطرة الرومانية الروحية كما كانت فى انجلترا .

على انه لما كانت أكثرية البلاد لاترضى عن تطرف المصلحين الذين ادخلوا التغيرات على العقيدة ذاتها ايام ادوارد السادس ، فان هذه الاكثرية نفسها كانت الان لاترضى كذلك عن تطرف مارى تيودرو التى ارادت ارجاع الكاثوليكية بحذافيرها الى انجلترا ، فأطلقوا عليها اسم مارى الدموية Bloody Mary لإمعانها فى اضطهاد المخالفين وكثرت الفتن والاضطرابات وصار من الواضح ان لابد من التفكير فى اختيار طريق وسط بين البروتستنتية المتطرفة من ناحية وبين الكاثوليكية المتطرفة من ناحية اخرى حتى يمكن تأسيس نظام الكنيسة فى انجلترا يحفظ سلطة التاج موحدة ويرضى فريقى المعتدلين من كل جانب ، او يكون عاملا قويا فى تأييد الملكية ذاتها . وكانت هذه مهمة شاقة ولاريب . واما عبئ القيام بها فقد وقع على كاهل الياصابات اخت مارى تيودور وابنة هنرى من زوجته آن بولين .

د ـ الياصابات ١٥٥٨ ـ ١٦٠٣ :

واستطاعت الياصابات ان تجعل من انجلترا بلدا بروتستنتيا فـــى النهاية بفضل الموقف الوسط الذى وقفته بين متطرفى البروتستنت والكاثوليك على السواء فمع أن الياصابات كانت قد تلقت العقائد الجديدة فى عهـد ادوارد السادس ، وأبدت اعجابها باعتراف اوجزبرج اللوثرى المشهور، وكانت تميل الى الهجونوت فى فرنسا ، فإنها لم تهتم بتاتا بدراسة المسائل الدينية دراسة متعمقة ، كما أنها لم تكن تشعر بأى تعصب لمذهب دون آخر ، ومع هذا فقد كانت اقل دراية بالمذهب الكاثوليكى بل وتكاد تجهل هذا المذهب • ولذلك فقد صارت موضع كراهية الكاثوليك المتطرفـــين • وأرغمتها مارى تيودور على حضور القداس الكاثوليكى ثم حاول انصار الكاثوليكية ان يغتالوها أو أن يحرموها من حق وراثة العرش بدعوة أنها ابنة غــير شرعية لهنرى الثامن • يقابل هذا من الجانب الاخر ان البروتستنت صاروا يعقدون عليها آمالهم فى انتصار العقيدة الجديدة •

غير أن الياصابات قررت اتباع سياسة الحل الوسط ، ثم انها اتخذت البرلمان أداة لتنفيذ هذه السياسة واستطاعت فى النهاية إقامة صرح الكنيسة المعروفة باسم النظام الانجليكانى ، او نظام الياصابات الكنسى The Anglican Elizabethan Church System أما أهم القوانين التى قام عليها هذا النظام قانونان : قانون السيادة العليا وقانون المذهب الواحد وكلاهما صدر فى سنة ١٥٥٩ •

وقانون السيادة العليا ألغى قانون الالغاء الثانى الذى صدر

فى عهد مارى تيودور سنة ١٥٥٥ . كما الغى القوانين التى استصدرتها مارى ضد الهرطقة وغيرها . فكانت معنى هذا إرجاع وضع الكنيسة فى انجلترا بالنسبة لكنيسة روما الى ماكانت عليه العلاقات بين الكنيستين فى عهد هنرى الثامن ، اى انفصالها وخضوع الكنيسة فى انجلترا لسيطرة السلطة الزمنية ، مع فارق بسيط ، هو أنه بدلا من استخدام لقب الرئيس الاعلى للكنيسة كما حدث ايام هنرى الثامن ، لعدم انطباق هذا اللقب على سيدة ، استعيض عن هذا اللقب الآن بأن تأكدت السيادة العليا فى شخص ما سمى بالحاكم الاعلى للمملكة — اى صاحبة الحكم فى جميع الشئون الروحية والزمنية على السواء . والزم قانون السيادة العليا رجال الدين والعلمانيين بأن يحلفوا يمين الولاء اعترافا بسلطان الملكة فى الشئون الكنسية وعدم الخضوع لاية سلطة أجنبية اى سلطة البابا فى كل المسائل الدينية ، وعند الفصل فى القضايا وغير ذلك من المسائل المماثلة لها . وكان الغرض من هذا القسم حرمان الاساقفة الكاثوليك من عهد مارى — من اسقفياتهم ، ثم الاطمئنان الى وجود اكثرية موالية للملكة فى مجلس اللوردات . وزيادة على ذلك فقد نص قانون السيادة العليا على معاقبة المعارضين والمخالفين لهذا القانون ومعاقبة الذين يقبلون اى سيادة اخرى أجنبية — اى غير سيادة الملكة — فى جميع الشئون من روحية وزمنية .

وأما قانون المذهب الواحد فهو القانون الذى بفضل صدوره انحازت الكنيسة فى انجلترا الى جانب الاصلاح الدينى فى اوروبا نهائيا . فعند استصدار هذا القانون تكون اليصابات قد تخلت عن موقف والدها هنرى الثامن من العقيدة ذاتها وهو عدم ادخال أى تغيير عليها — وسارت

شوطا فى سبيل تغيير العقيدة لدرجة جعلتها قريبة من العقيدة بعد التغيير الذى حدث على يد كرانمر فى عهد ادوارد السادس. ذلك ان هذا القانون أقر نوع العبادة التى تضمنها كتاب الصلاة الثانى لسنة ١٥٥٢ مع ادخال بعض تغييرات جعلت من المستطاع أن ينحاز الى نوع العبادة الجديدة اكبر عدد ممكن من المعتدلين والبروتستنت والكاثوليك على السواء وكانت اهم هذه التغييرات على قسمين قسم متعلق بتزيين الكنائس، وملاحظة طقوس الصلاة، وملابس القساوسة، وفى هذه المسائل كان الميل نحو الكاثوليكية ظاهر وقسم اخر متعلق بالعقيدة ذاتها وعلى الخصوص فى مسألة القربان. فبينما كتاب الصلاة الاول لسنة ١٥٤٩ يأخذ بالوجود الحقيقى فى سر الافخاريستيا وكتاب الصلاة الثانى لسنة ١٥٥٢، ينفى هذا الوجود ويتخذ موقفا قريبا من الزونجيلية من حيث اعتبار القربان حفلة تذكارية فقط ولاسداء الحمد والشكر، فقد جمع كتاب الصلاة الجديد لسنة ١٥٥٩ بين القولين معا فى مسألة القربان.

ولما كان قانون المذهب الواحد هذا لايجيز الا نوعا واحد من العبادة العامة على غرار القوانين المماثلة له، فقد فرض عقوبات صارمة على الذين يخالفون ويعارضون العبادة الجديدة. وقد تبع هذا القانون ان صدرت عدة أوامر فى ١٥٥٩ اعتبر بفضلها زواج القساوسة قانونيا مع عدم التشجيع عليه — كما طلب من القساوسة الاعتدال فى اختيار الملابس البسيطة كما كان الحال فى اخر عهد ادوارد السادس، وقد اكدت هذه الاوامر كذلك سلطات الملكية فى الشئون الدينية والزمنية على جميع رعاياها.

ذلك اذا كان نظام الكنيسة الانجليكانى ، ومن اوضح صفاته انه كان كاثوليكى المظهر ، بروتستنتى العقيدة · ومن مبدأ الامر لقى هذا النظام معارضة شديدة من جانب البروتستنت المتطرفين · وقد انقسم هؤلاء الى فريقين : فريق المتطرفين المعتدلين الذين وان كانوا ينكرون على الكنيسة مظاهرها الكاثوليكية الخارجية ، فقد ارتضوا بالنظام الجديد على أمل ان يؤثروا على هذا النظام فيما بعد بما يتفق مع عقائدهم · ويعرف هؤلاء باسم المتطهرين Puritans ثم غلاة المتطرفين الذين رفضوا بتاتا الخضوع للنظام الانجليكانى ، ويعرف هؤلاء باسم الانفصاليين Separatists وهؤلاء وقعوا تحت طائلة العقوبات التى فرضها قانون المذهب الواحد لاستئصال مخالفيه · وعلى كل حال فقد استنكر البروتستنت المتطرفون عموما المظاهر الكاثوليكية الخارجية برمتها ، وأرادوا أن تكون الكنيسة بروتستنتية فى المظهر والعقيدة معا ·

وكذلك لقى هذا النظام الانجليكانى معارضة شديدة من جانب الكاثوليك المتعصبين الذين كانوا أشد خطرا على الملكية من البيورتيان والانفصاليين لانهم صاروا يتآمرون على حياة الملكة للتخلص منها والقضاء بذلك على النظام الانجليكانى ، وصاروا يعتمدون فى مؤامراتهم على فيليب الثانى ملك اسبانيا وعلى البابا فى روما ·

واما العصابات فقد انحازت الى تعضيد البروتستنت فى الاراضى المنخفضة والهجونوت فى فرنسا · وكان من الواضح انه لا مفر من اشتباك البروتستنتية والكاثوليكية فى نضال عنيف وحاسم : البروتستنتية بزعامة انجلترا والكاثوليكية بزعامة اسبانيا · ولم تلبث الحوادث التالية أن ادت

الى قيام هذا النضال وكان فى مقدمة هذه الحوادث توتر العلاقات بين اليصابات وبين اسكتلندة وملكتها مارى ستيورات ٠

ومارى ستيوارت هذه هى من حفيدات هنرى السابع تزوجت بـــــن فرانسوا الثانى ملك فرنسا وعادت الى اسكتلندة بعد وفاة زوجها منـــذ سنة ١٥٦٠ ، وصارت محور المؤامرات التى انغمس فيها متطرفو الكاثوليك ضد اليصابات وذلك لتنصيب مارى ستيورات نفسها على عرش انجلترا وعـــزل اليصابات او قتلها ٠ ولقد تعددت هذه المحاولات ، حتى رأت اليصابات أن تتخلص من هذه المؤامرات بالقبض على مارى ستيوارت عندما لجأت هذه الى انجلترا تطلب الحماية من خطر ثورة قام بها الشعب والنبلاء فى اسكتلندة ضدها لفشلها فى الحكم ولاتهامها بقتل زوجها دارنلى Darnley وأخيرا اعدمتها اليصابات فى سنة ١٥٨٧ ٠ وعندئذ صار الكاثوليك فى انجلترة يتطلعون الى شخص فيليب الثانى ملك اسبانيا زوج مارى وملكتهم السابقـة والذى كان يطمع فى عرش انجلترا فتجددت مؤامرات الكاثوليك لاغتيـــال اليصابات ، وانتهز فيليب الثانى هذه الفرصة لتحقيق اطماعه فأرســـل اسطولا ضخما (الارمادا Armada) المشهورة ضد انجلترا لغزوها سنة ١٥٨٨ ، ولكن الملاحين الانجليز سرعان ما احاطوا بمراكبهم الخفيفـة سفن الاسبان الثقيلة فى القنال الانجليزى فى ٥ يوليو سنة ١٥٨٨ ، وعاكس الريح الارمادا التى لاتقهر ، فاضطرت للالتجاء الى كاليه ، وهناك هاجمها الانجليز هجوما عنيفا حتى أرغموها على الفرار فى بحر الشمال على امـل الالتفاف حول الجزر البريطانية والعودة الى اسبانيا من هذا الطريـــق الطويل ، ولكنها لم تلبث أن تعرضت الى عاصفة شديدة فى البحر عنـــد جزر اوركينى فتحطمت تماما على شواطىء اسكتلندة وايرلندة فى اغسطـــس

١٥٨٨ ولم تستطيع سوى بقاياها القليلة المحطمة العودة الى اسبانيا ٠ ومن ذلك الحين خرجت سيادة البحار من يد اسبانيا ٠

ولقد استمرت الحرب فى السنوات التالية من حكم اليصابات٠ ولكن تحطيم الارمادا قضى على كل آمال الكاثوليك الرومانيين نهائيا ، كما قضى على كل أمل فى إقصاء اليصابات عن العرش ٠ وكان من نتائج هزيمة الارمادا توطيد النظام الانجليكانى فى انجلترا وهكذا خرجت انجلترا من نضالها مع أسبانيا منتصرة دينيا وسياسيا ٠

وفى ٢٤ مارس ١٦٠٣ توفيت اليصابات بعد حكم طالت مدته ٠ وبوفاتها انتهى عهد التيودور فى انجلترا وبدأ عهد اسرة جديدة هى اسرة ستيوارت Stuarts وفى عهد هذه الاسرة الجديد بقيت المسألة الدينية تشغل الاذهان فى انجلترا ٠ ولو ان النضال الداخلى ، فى عهد هذه الاسرة الجديدة كان نضالا دستوريا فى جوهره ، من اجل تقيد سلطة الملكية ، واقرار حقوق الشعوب الممثل فى البرلمان ، وتاريخ هذا النضال انما هو جزء من تاريخ اوروبا فى القرن السابع عشر ٠

الفصل التاسع

انجلترا والثورة الدستورية

كان لانجلترا فى القرن السادس عشر تاريخ يشبه فى وجوه معينة تاريخ الدول الكبرى فى اوروبا الغربية فى هذا القرن من حيث سيطرة الملكية واستئثارها بالسلطة المطلقة ؛ ومن حيث ظهور الطبقة المتوسطة وازدهار التجارة الخارجية وكذلك من حيث المساهمة فى حركة إحياء العلوم والمعارف التى عرفت باسم النهضة ٠

ولكن هذه البلاد لاتلبث ان تسير فى القرن السابع عشر فى طريق يعزلها اكثر من ذى قبل عن سائر اوروبا مما يجعل لتاريخها خصائص ومميزات تختلف كثيرا عن اوروبا الغربية حقيقة بقى الاتصال بين انجلترا وبقية اوروبا واستمرت انجلترا تتأثر بالاحداث التى تجرى فى اوروبا ؛ وحاولت اسرة ستيوارت التى وصلت الى الحكم بعد اسرة تيودور فى عام ١٦٠٣ أن تقلد اسرة البوربون فى فرنسا وتنشئ لنفسها حكومة على نمط الحكومة التى اقامها لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر فى فرنسا ، ووجد من ملوك اسرة ستيوارت — وخصوصا الملك شارلى الثانى من أراد أن يحذو حذو حكومة لويس الرابع عشر فى الدين والسياسة ، ولكن كل هذه المحاولات كان نصيبها الفشل عندما حطمتها الثورة التى قامت عام ١٦٨٨ ، وهى الثورة التى عرفت باسم المجيدة The Glorious Revolution او الثورة الدستورية ، وقد اسفرت عن تأييد نظام الحكم البرلمانى فى انجلترا وقضت على كل محاولة لاقامة الحكم الاستبدادى المطلق هناك ٠ اما هذا النصر فقد كان له اكبر الاثر فى حياة اوروبا

السياسية حينئذ ، ذلك أن أوروبا في عام ١٦٨٨ كانت بوجه عـام تسير في اتجاه واحد هو تركيز كل سلطة في يد الملكية حيث سـاد الاعتقاد بأن اشتراك عناصر الشعب في الحكم والادارة من شأنه أن يضعف الدولة لا أن يساعد على تقويتها لكن ثورة ١٦٨٨ وما تلاها من دعم النظام البرلماني في انجلترا ، ونجاح هذا النظام في ادارة شئون الحرب والسياسة والمال والتجارة لصالح انجلترا في القرن الثامن عشر دل على فساد مزاعم أنصار الحكم الاستبدادي المطلق ، فظهر اتجاه جديد نحو اطلاق الحريات العامة ، والسياسية منها بصفة خاصة . وظهـر أثر هذا الاتجاه الجديد في تفكير وكتابات السياسيين من رجال الحكم وأصحاب النظريات والمذاهب السياسية .

اعتلى چيمس الاول (١٦٠٣ ـ ١٦٢٥) العرش بعد اليصابات وهو ابن ماري ستيوارت واقرب وريث للعرش ، وكان حينئذ ملكا على اسكتلندة وكان سبب ارتقاءه العرش الرغبة في ايجاد اتحاد شخصي بين اسكتلنـدة وانجلترا ، وكان يرجى ان تفيد البلاد من هذا الاتحاد . لكن چيمس لم يكن له من الصفات ماكان لاليصابات ، فلم يتصف بالحذر والحكمة ، ولم يكن ملما بحقائق الموقف في اوروبا وقد تمسك چيمس بنظرية حق الملـوك الالهي او المقدس في الحكم بالاضافة الى ذلك فقد كان ملكا غير مستنير واصطدم بالبرلمان وحله على أن الازمة بين الملكية المستبدة والبرلمان ستتصاعد بحدة في عهد خليفته شارل الاول (١٦٢٥ ـ ١٦٤٩) .

شارل الاول (١٦٢٥ ـ ١٦٤٩) :

كان شارل الاول ميالا الى حق الملك الالهي في الحكم وميـا لا

الى الكاثوليكية وأسند الامور الى دوق بكنجهام Duke of Buckingham) وهوشخصية بغيضة الى الشعب وكان شارل الاول طموحا فى سياسته الخارجية ، فكبده ذلك هزائم وأعباء مالية جسمية ٠

فقد عاش طوال حكمه فى أزمة مع البرلمان خاصة بسبب الضرائب التى كان يفرضها فوق طاقة الشعب وحاول البرلمان ان يحد من جبروت الملك عن طريق (ملتمس الحقوق The petition of Rights) طالبا الا تفرض ضرائب الا بموافقة البرلمان ولايسجن مواطن سجنا تعسفيا ومنع استضافة الاهالى للجند ، كما طلب البرلمان عزل دوق بكنجهام المرفوض من الشعب ٠ وتصلب البرلمان فى موقفه حتى حله الملك ولم ينعقد بين عامى ١٦٢٩ ــ ١٦٤٠ حتى أدت الحملات العسكرية والحروب ضد اسبانيا واسكتلندة الى فراغ الخزينة ٠

ولم يبق الا ان تسنح فرصة مناسبة لتتحد البلاد بأسرها لمقاومة الملكية المطلقة ٠ولقد أتيحت هذه الفرصة فى اسكتلندا حينما حاول شارل ــ جريا على عادته فى إهمال شعور الناس ــ ان يرغم الاسكتلنديين على قبول كتاب الصلاة الانجليزى وطقوس الكنيسة الانجليكانية (الاسكتلنديون بروتستانت برستبيريان Presbyterians) فقامت الثورة فى اسكتلندا ووضع الاسكتلنديون ميثاقا وطنيا تعاهدوا فيه على مقاومة البدع الدينية الجديدة وكل محاولة لتغيير مذهبهم الدينى بكافة الطرق والوسائل ٠ ولما أصر شارل على موقفه جمع الاسكتلنديون جيشا كبيرا وبدأوا يغزون انجلترا من الشمال فقامت الحرب المعروفة باسم الحرب الاسقفية **الاولى** " First Bishops' War " فى عام ١٦٣٩ التى انتهت بهزيمة الملك فاضطر الى عقد الهدنة ٠ ثم شاء شارل

أن يغسل هذه الإهانة التى لحقته ، ولما كانت الحاجة الملحة الى المال تحول بيته وبين إنشاء جيش جديد فقد اضطر شارل الى ان يدعو البرلمان الى الانعقاد فى عام ١٦٤٠ .

وانعقاد البرلمان فى هذا العام يحدد نهاية عهد الحكومة المطلقة وقد عرف هذا البرلمان باسم البرلمان القصير The Short Parliament لان حياة هذا البرلمان لم تطل لاكثر من ثلاثة اسابيع (١٣ ابريل ـ ٤ مايو) والسبب فى ذلك أن البرلمان بدلا من الموافقة على الاعانات المالية المطلوبة اخذ يذكر الملك بالمساوئ التى تشكو منها الأمة ويصر على عدم منحه إمدادات مالية الا اذا قبل مطالب الأمة ونفذ العهد الذى تضمنه ملتمس الحقوق . واضطر شارل مرة اخرى الى الدخول في الحروب دون أن يكون لديه المال اللازم لمواصلتها ، وذلك عندما استأنف القتال ضد الاسكتلنديين فيما صار يعرف باسم الحرب الاسقفية الثانية The Second Bishops' War وانهزم شارل فى هذه الحرب كما انهزم فى سابقتها ، فلم يبق أمامه حل الا ان يعقد البرلمان من جديد .

وفى خريف عام ١٦٤٠ دعا شارل البرلمان الى الانعقاد . وكان يدرك أنه لن يستطيع فى هذه المرة أن يحل البرلمان أو يبقيه حسب هواه وبالفعل بقى هذا البرلمان قائما عدة سنوات فلم يتم حله الا فى عام ١٦٥٣ ، ولذلك اطلق عليه اسم البرلمان الطويل The Long Parliament وأجمع اعضاء البرلمان امرهم على ان يضعوا حدا للسلطة المطلقة وأن يجعلوا من المستحيل الرجوع اليها . وبدأوا بتوجيه

الاتهام الى سترا تفورد (1) بالخيانة فأعدم فى عام ١٦٤١ . وبعد أربع سنوات أعدم كذلك لود Loud (٢) فى عام ١٦٤٥ واستصدر البرلمان عدة قرارات لتأمينه ضد انتقام الملك من جهة ولوضع ارادة النواب مكان سلطة الملك السابقة من جهة أخرى، فقرر أنه لايجوز حل المجلس الا بإرادة النواب ، كما الغى الضرائب غير البرلمانية التى كان يعتمد عليها الملك مثل ضريبة السفن وضريبة الجمارك والحقوق الاقطاعية ، كما ألغى قاعة النجم " Star Chamber " ومجلس الكنيسة الاعلى وهما الهيئتان القضائية والدينية اللتان عززتا سلطان شارل فى عهد الملكية المطلقة .

ولم يكن ينتظر ان يرضى الملك طويلا بانتزاع كل هذه السلطات منه وتجريده من السلطة. وسنحت الفرصة للملك ليناضل البرلمان عندما وجد أن أعضاء مجلس العموم ، رغم اتفاقهم حول المسائل الدستورية التى اثارها نزاعهم معه، انهم كانوا مختلفين فيما بينهم حول المسائل الدينية وذلك لانه رغم ازدياد شعور العداء ضد الانجليكانية فى السنوات الإخيرة فقد كان لايزال هناك قسم محافظ قوى متمسك بالمذهب الانجليكانى تمسكا شديدا . وسرعان ماوقع الصدام بين هذا القسم الانجليكانى وجماعة البيوريتان، فانقسم المجلس الى فريقين على نحو مكن الملك من انتهاز الفرصة ليؤلف لنفسه حزبا جديدا من الانجليكانيين .

---

(١) رئيس الحكومة الذى اختاره شارل الاول بنفسه .

(٢) رئيس الاساقفة ، اى رئيس اعلى كنيسة بانجلترا (وهما من أعوان شارل الاول) .

وعندما حاول الملك القبض على الزعماء الوطنية قامت ثورة لندن ، وتزعمها البيوريتان Puritans واضطر الملك الى الفرار (١٦٤٢) ، وانقسمت انجلترا على نفسها :

١ ـ الجبهة الملكية من النبلاء والإكليروس (كونوا حزب الانجليكانيين)

٢ ـ البرلمانيون واطلق عليهم Round Heads

وقد انتصر البرلمانيون بقيادة اليفر كرمويل Oliver Cromwell البيوريتاني ـ على جيش الملك فى موقعة نازبى Nazby فى ١٦٤٥. ولجأ شارل الى الجيش الاسكتلندى الذى كان يناصره الا انه سلمه الى الثوار فحاكموه وأعدموه. وقام البرلمان بتطهير نفسه من أعوان الملك وألغى مجلس اللوردات معقل الملكية والنبلاء . كما قرر البرلمان إلغاء الملكية واقيمت الجمهورية " Commonwealth " مكانها فقد انتخب البرلمان (العاجز) فى ١٤ فبراير عام ١٦٤٩ هيئة للحكم اطلق عليها مجلس الدولة Council of State من ٤١ عضوا كان منهم كرومويل . وفى ١٩ مايو اعلن ان انجلترا جمهورية ودولة حرة .

الجمهورية " The Commonwealth

وكانت المشكلة التالية بعد ان هدأت الامور فى الداخل هى إيجاد نوع من الحكم يكفل الاستقرار الدائم فى البلاد ولم يشارك فى هذه الرغبة سوى جماعة البرلمان " العاجز " التى استمرت متمسكة بمركزها فقرر كرومويل ان ينتهى من هذا البرلمان فاقتحم فى ٢٠ ابريل عام ١٦٥٣ مع جماعة من جنود البرلمان وطرد أعضائه ثم حل الهيئة التنفيذية العليا وهى مجلس الدولة . وكان الحل الطبيعى هو ايجاد برلمان منتخب

انتخابا حرا لمواجهة المشاكل . ولكن مثل هذا البرلمان كان حتمـــا
سيدعو شارل الثانى (ستيوارت) لتولى عرش أبائه ، ولم يكن هـذا
ليرضى كرومويل .

وعلى ذلك فقد قبل كرومويل دستورا جديدا اطلق عليه (أداة الحكم) " Instrument of Government " فى ١٦ ديسمبر عام ١٦٥٣ من وضع ضباطه . وهذا الدستور يتكون من ٤١ مادة وينص على وضـع السلطة العليا والرئيسية فى يد أوليفر كرومويل تحت لقب حامى الجمهورية " Lord protector " . أما السلطة التشريعية فقد وضعت فـى يد برلمان مكون من مجلس واحد منع من عضويته كل انصار الملك . وهكذا بدأت حكومة كرومويل التى عرفت بالحماية Protectorate واستمـرت تحكم خمس سنوات من ١٦٥٣ الى ١٦٥٨ كانت مليئة بالمشاكل التى كان فى مقدمتها ان البرلمان اراد تغيير نظام الحكم القائم فلم يكن مـن كرومويل الا ان حله فى يناير ١٦٥٥ وبقى يحكم من غير برلمان . وتكـررت محاولة الاعتداء على حياته وقامت الثورات الملكية لكنه استطاع ان يتغلب على هذه المتاعب كلها . وفى عام ١٦٥٦ دعا كرومويل برلمانه الثانى للاجتماع وامكن التعاون بينه وبين هذا البرلمان بعض الوقت ، بل ان البرلمان عرض على كرمويل التاج فرفضه . لكن لم يلبث النزاع ان قام بينهما ممـا جعل كرومويل يأمر بحل هذا البرلمان فى فبراير عام ١٦٥٨ .

حكم كرمويل البلاد حكما دكتاتوريا كما انه حل البرلمان ولكنه نجـح فى سياسته الخارجية حتى وفاته ١٦٥٨ مخلفا على الحكم ابنه الضعيـف وظهرت تيارات (ملكية وجمهورية ، وجبهة يمينية) ، وتغلب الاتجـاه

نحو عودة ملكية مقيدة ، فاسند العرش الى شارل الثانى (١٦٦٠ ـ ١٦٨٥) .

عودة الملكيـة : Restoration

وكان شارل الثانى حذرا من البرلمان ، وكان البرلمان قد خففت حدته واصبح مسالما ولكن يخشى من اتجاهات الملك الكاثوليكية ، فما كان من البرلمان الا ان قضى على هذا الاتجاه باصداره قانون (الاختبار) Test Act الذى فرض على الموظفين المشاركه فى الصلوات فى طقوس الكنيسة كما حرم على الكاثوليك دخول البرلمان او تولى اى وظائف مدنيـة او عسكريـة .

تحققت مخاوف البرلمان حيث ان شارل الثانى تحالف سرا مـع لويس الرابع عشر على أساس عودة الكاثوليكية بدعم عسكرى فرنسى ، فكان طبيعيا ان يتخذ البرلمان موقفا صليا وناقش وراثة العرش فانقسم الـى جهتـين : ـ

١ ـ حزب الهويج Whigs (البيوريتان) كان يقترح اقصاء اخو الملك عن العرش باعتباره كاثوليكيا

٢ ـ حزب التورى Tories (المحافظون) من نبلاء وأعيان ورجال دين يميلون الى الملكية . ويتمسكون باتباع نظـام الوراثة بدقـة .

وتعقدت المشكلة فى عهد چيمس الثانى (١٦٨٥ ـ ١٦٨٨) .

ولا يكاد جيمس الثانى يتولى العرش (١٦٨٥) حتى اتجه اتجاها كاثوليكيا اذ اصدر لائحة التسامح الدينى لصالح الكاثوليك ، فاغضب ذلك

الحزبين الرئيسيين (التورى) الذى كان يدعم الملك ولكن يخشى من تصاعد قوة قيادات الجيش خلال الازمة (وحزب الهويج) الذى كان يدافع عن سلطان البرلمان ضد طغيان الملك عليه ٠

ومع ذلك فقد سكت الشعب على كل هذا لأن وريثة العرض حينذاك كانت مارى ابنة چيمس من زوجته الاولى زوجة وليم أورنج وهى بروتستنتية ولكن لما انجبت زوجة چيمس الثانية فى يونية ١٦٨٨ ولدا أصبح المولود وفق القانون الانجليزى أحق بالوراثة من مارى ٠ فانتابت الانجليز خيبة أمل شديدة اذ كان المعتقد ان هذا الطفل سيربى على الكاثوليكية ٠ ولقد حدثت هذه الولادة فى نفس الوقت الذى قدم فيه الاساقفة السبعة للمحاكمة لعدم تنفيذهم إعلان الغفران فخلف الحدثان هياجا خطيرا فى صفوف الشعب وتناسى زعماء الهويج والتورى خلافاتهم وارسلو خطابا سريا الى وليم اورنج وزوجته مارى يدعو انهما للحضور لنجدة انجلترا ٠ وفى نوفمبر سنة ١٦٨٨ وصل وليم الى انجلترا والتف الناس من مختلف الطبقات حوله ٠ وارسل الملك جيشه لمواجهته ولكن الجيش كان مترددا فى تنفيذ أوامره ٠ وادرك چيمس انه يقف وحيدا فارسل زوجته وطفله الى فرنسا ولحق بهما بعد قليل ٠ وهكذا انتهت أسرع ثورة بيضاء فلما اجتمع البرلمان اعلن خلو العرش وعرضه على وليم ومارى بالاشتراك ٠ وبهذا الاجراء قضى البرلمان على نظرية حكم الملك بمقتضى الحق الالهى المقدس واصبح الملك يحكم باختيار الشعب والبرلمان ، واصبحت اليد العليا للبرلمان وصدر قانون التسوية الذى يحرم اى وريث كاثوليكى من تولى العرش ثم صدر قانون (الوحدة) الذى وحد انجلترا واسكتلندا وعرفت بالمملكة المتحدة ٠

ففى خلال القرن السابع عشر كان النزاع قائما بين الملك والبرلمان حول السلطة ، وكان ملتمس الحقوق ١٦٢٨ اول قانون يحد من طغيان الملكية . ولكن لحقته الحرب الاهلية وقيام الجمهورية والحماية فاختفى ملتمس الحقوق كما اختفت المسألة الدستورية برمتها حتى عادت الملكية دون أن يصحب عودتها عودة السلطة التى كانت لچيمس الاول . وحرص شارل الثانى على تجنب الاشتباك مع البرلمان ، ورغم ذلك فقد بقيت الملكية مصدر السلطة المطلقة من ناحية الادعاء بأن الملك معين عن طريق الله ، فهو فوق كل القوانين ويستطيع ايقاف تنفيذها متى شاء وهذا الادعاء هو ما حاول البرلمان دحضه فى سنة ١٦٨٩ (بقانون Bill of Rights الحقوق) وبمقتضاه اعلن خضوع الملك للقانون ، كما انه جعل كل التشريعات التى اصدرها چيمس الثانى غير قانونية . وبقانون الحقوق ينتهى النزاع الدستورى الطويل بانتصار البرلمان وتدخل انجلترا فى حقبة جديدة من تاريخها هى حقبة الحكومات البرلمانية . وكما انهى البرلمان النزاع الدستورى خطى خطوة مهدت الطريق لحل المسألة الدينية ايضا فأصدر قانون التسامح Toleration Act الذى يمنح المخالفين حق العبادة العلنية . فأصبح البروتستانت غير الانجليكانية يتمتعون بالحرية الدينية وان لم يتمتعوا بالحرية السياسية . وبذلك كان لقانون التسامح الفضل فى اضعاف الروح البيوريتانية العنيفة وتهدئة البلاد من الناحية الدينية ، وهذان القانونان قانون التسامح وقانون الحقوق يوضحان الاهمية التاريخية لما اطلق عليه الثورة المجيدة " The Glorious Revolution ".

الفصل العاشـــر

ملخص لحوادث القرنين السادس عشر والسابع عشـــر

كان أظهر ما امتاز به القرن السادس عشر أنه كان جديدا فى كـــل شيء ، فظهرت هذه الجدة أو الحداثة فى نواحى التفكير المختلفة ، وفـــى ميادين النشاط الانسانى المنوعة : فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وفى السلوك الخلقى وكانت هذه الجدة والحداثة شيئا من المنتظر حصوله ، وذلك نتيجة للتنبيه الذهنى الشامل الذى كان طابع عصر النهضة الأدبية والفنية ، قبل بداية العصر الحديث . وعلى هذا فقد كان القرن الســـادس عشر عصر اضطرابات فكرية وثورات وحروب ، وشاهد انقلابات هامة . منهـــا الانقلاب الدينى الذى عرفناه باسم الإصلاح الدينى ، ثم الانقلاب المضاد الذى لايقل عنه أهمية ، ونعنى بذلك الاصلاح الكاثوليكى أو انتعـــاش الكنيسة الكاثوليكية . وقد استمر العامل الدينى عاملا قويا يشكل حـــوادث النصف الثانى من القرن السادس عشر على نحو ما اوضحنا عند استعراض الصراع الدينى فى اوروبا . وثمة عامل آخر ، تسبب فى زيادة الاضطراب فى داخل الامم الحديثة النشأة ، ثم بين هذه الأمم بعضها مع بعض وذلك هو ظهور الدولة الوطنية الحديثة ، ثم التى شهدت انتشار حركـــة الاصلاح الدينى فى عصر لم يعرف اطلاقا التسامح الدينى ، فقد خشيت ان يؤدى الانقسام الدينى بين أصحاب العقيدة الدينية القديمـــة أى الكاثوليك وبين أصحاب العقيدة والمذاهب الدينية الجديدة أى اتبـــاع لوثر وزونجلى وكلفن الى انقسام سياسى فى داخل الدولة ذاتها .

وكان من واجب الملكية ، وهى التى تأسست حديثا ان تقضى على هذا الانقسام بكل انواعه فى داخل حدودها . بل ان الدولة الحديثة

التى لاتزال فى دور النمو . لم تلبث ان وجدت من واجبها فى ظروف معينة ان تستفيد من هذا العامل الدينى البارز بأن تستخدمه فى تحقيق اغراضها السياسية الجديدة والاغراض التى اعتبرتها حيوية بالنسبة لبقائها ودعم اركانها ، وهى الاغراض التى صارت تتلخص فى ضرورة الوصول الى الحدود الطبيعية . وكانت فرنسا على رأس الدول الحديثة التى عملت لهذه الغاية ، ولو أن نضال فرنسا فى القرن السادس عشر كان كما رأينا موجها على الخصوص نحو تنفيذ هذه السياسة فى نطاق ضيق لخدمة أغراض مباشرة ومحددة ، هى الحصول على تول ومتز وفردان ، وراحت فرنسا تبرر هذا العمل من جانبها ، وكما صارت تفعل الدول الاخرى التى اشتبكت فى حروب القرن السادس عشر لاغراض توسعية وغيرها ، بأن المحافظة على التوازن الدولى فى اوروبا أمر ضرورى . ولقد كانت سياسة التوازن هذه موجهة ضد الهابسبرج ، ثم ضد اسبانيا ، حيث هددت كل منهما فى وقت من الاوقات بفرض سلطانها على أوروبا .

غير أن اعتبار العامل الدينى فقط وما ترتب عليه من نتائج المحرك لكل الاضطرابات والقلاقل والحروب التى شهدها القرن السادس عشر ولايمكن ان يكون وحده كافيا لتفسير تاريخ هذا القرن على الوجه الاكمل . فمن الثابت أن المحرك ذا الاثر العميق ، والدافع القوى والذى تسبب فى اثارة كل هذه الاضطرابات والقلاقل والحروب انما كان العامل الاقتصادى .

والمقصود بالعامل الاقتصادى ، الآثار التى نجمت عن تدفق معدن

الفضة بكثرة وافرة على اوروبا ، منذ ان صار للأسبان ممتلكات جديـدة غنية بمعدن الفضة فى العالم الجديد فى غرناطة الجديدة فى الجزء الشمالى الغربى من امريكا الجنوبية ، وفى بيرو، والمكسيـك وبوليفيا (بوتوسى Porosi) نكثرت الفضة كثرة بالغة فى اوروبا منـذ منتصف القرن السادس عشر . وأحدث تدفق الفضة هذا على أوروبا ثورة فى الأسعار . لأن وجود هذا المعدن بكميات وفيرة جعل مقدار العملة المتداولة يتزايد زيادة كبيرة ، ومن المبادئ الاقتصادية المعروفة أنـه كلما كثر مقدار العملة المتداولة كلما ارتفعت أثمان السلع والحاجيات .

وكان لهذه الثورة فى الاسعار آثار خطيرة ، نذكر منها : أولا أن زيادة أسعار الحاجيات ـ التى وصلت الى الضعف او الثلاثة أمثال بين سنة ١٥٥٠ وسنة ١٦٠٠ خصوصا ـ أعطى قسم الطبقة المتوسطة الاعلى فى المجتمع قوة مكنتها من الظهور والتأثير على نوع الحضـارة القائمة بالشكل الذى يتلاءم مع مطالب هذه الطبقة وأغراضها . فقضـت هذه الطبقة الوسطى على بقايا الاقطاع المتخلفة من العصور الوسطـى ، أى على بقايا تلك الاوضاع التى ارغمت فى الماضى على قبولها . ثم انها صارت بدلا من ذلك تؤيد الآن سلطان الملكية وكان تأييدها للملكيـة مشروطا بشرطين : أولهما أن تكون هذه الملكية فى قوتها أداة فعالـة فى المحافظة على مصالح هذه الطبقة . وثانيهما أن تعتمد الملكية فى بقائها وممارسة سلطتها على تأييد الطبقة المتوسطة . لأن هذه الطبقة صارت تريد الان أن يكون لها نصيب فى ادارة شئون الحكم ولو مـن وراء ستار الملكية المطلقـة .

وأما الأثر الثانى لثورة الاسعار هذه ، فقد نشأ من عدم زيـادة

أجور الصناع والعمال (وغيرهم من الذين يؤلفون القسم الآخر، وهو الادنى او الفقير من الطبقة المتوسطة نفسها) ، رغم ارتفاع الاسعار، فقد بقيت الاجور ضئيلة وفى مستواها المنخفض بالرغم من ارتفاع اثمان الحاجيات وعندئذ انقسمت الطبقة المتوسطة على نفسها ، وصار قسم كبير منها فى حالة تذمر واضطراب . ولم يلبث أن وجد هؤلاء المتذمرون مجالا للتعبير عن تذمرهم بشكل على مخيف، وذلك باعتناق المذاهب الدينية الجديدة والثورة فى ظل الاصلاح الدينى على السلطات القائمة ، كما حدث مثلا فى ثورة الفلاحين فى المانيا ، أو كما حدث فى شأن أولئك الذين اعتنقوا الكلفنية ، أو أولئك الذين انضموا الى القائلين بالمعمودين مرة ثانية (انابابتية Anabaptism) ومبادئ هؤلاء الاخرين كما عرفنا كانت هدامة من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية جميعا مما زاد الصراع الدينى فى أوروبا .

ولكن بالرغم من كل الاضطرابات والحروب التى سببتها ظهور الدولة الحديثة ووقوع ثورة الاسعار السالفة الذكر، لم يحدث عند نهاية القرن السادس عشر ما يدل على ان هذا الغليان الكبير قد اسفر عن تغيير جوهرى فى جغرافية اوروبا السياسية . فقد رأينا كيف ان معاهدة فرفان سنة ١٥٩٨ Vervins بين فيليب الثانى وهنرى الرابع، قد ارجعت السلام بين أسبانيا وفرنسا على أساس معاهدة كاتو كمبرسيس سنة ١٥٥٩ فتأيدت هذه المعاهدة الأخيرة ، وبذلك بقيت لفرنسا حدودها الطبيعية ، بينما احتفظت اسبانيا بممتلكاتها فى ايطاليا واستمرت لها السيطرة هناك . ومن ناحية أخرى ، فان معاهدة كاتو كمبرسيس ذاتها كانت قد أبقت على جوهر الوضع الذى كان قائما

في اوروبا عند بداية حكم الامبراطور شارل الخامس سنة ١٥١٩ ٠

على انه عند بداية القرن السابع عشر ، كانت قد ظهرت الى عالم الوجود مجموعة من الأمم المسلحة الجديدة ٠ وفى مدة المائة سنة التالية سارت مجموعة هذه الأمم المسلحة فى طريق تغيير جديد ٠ وهو تغيير حدث تحت تأثير عاملين هامين :

أولهما : أن أجور الصناع والعمال وصغار الطبقة المتوسطة عموما ، وهى الاجور التى بقيت منخفضة ، فى عهد الفضة السابق ، أخذت الآن ترتفع تدريجيا حتى وصل مستواها اى مستوى الاجور — فى آخر القرن السابع عشر (سنة ١٧٠٠) الى مستوى الاسعار المرتفعة ٠ وكان معنى هذا رجوع الموازنة القديمة بين الأجور والاسعار التى كانت موجودة قبل الخلل الذى طرأ عليها بسبب تدفق الفضة على اوروبا من الممتلكات الاسبانية فى امريكا ٠ وبعد هذه الموازنة بين الاجور والاسعار هدأت الاحوال فى داخل الدولة الواحدة ، وانتهى تذمر الطبقة الفقيرة أو الدنيا ، الذى سبب الاضطرابات والثورات فى الماضى ٠ وعلى ذلك لم يشهد القرن السابع عشر الاضطرابات والثورات الاهلية التى شهدها القرن السادس عشر ٠

والعامل **الثانى** : هو زيادة عدد الدول التى صارت تشترك جديا فى تشكيل حوادث وتاريخ القرن السابع عشر : ثم زيادة نفوذ الدولة الواحدة فى المحيط المجاور لها ، وفى محيط السياسة الاوروبية عموما ، وذلك على خلاف ماكان عليه الحال فى القرن السادس عشر ، سواء فيما يتعلق بعدد الدول أم بزيادة نفوذ الدولة الواحدة ٠ واما أسباب

التغيرات التى حصلت نتيجة لما ذكرناه ، فأولهما الاضطرابات والحروب التى نجمت فى هذا العهد (القرن السابع عشر) من رغبة فرنسا فى توسيع املاكها للوصول الى حدودها الطبيعية ، وثانيها قيام المنافسة الشديدة بين انجلترا وهولندة ، فيما وراء البحار لوراثة أمبراطورية البرتغال فى المحيط الهندى بعد أن ضعف شأن هوءلاء ، وللحصول كذلك على املاك في العالم الجديد في الجزء الواقع بين أمريكا الاسبانية وكندا الفرنسية ، وثالثها ظهور ونمو دول بحر البلطيق الحديثة : أى الدانمرك ، السويد ، روسيا ، فان هذه الدول الثلاث ، بترتيب اكتمال نموها ، كانت تسعى للسيطرة على شواطىء البلطيق ، الامر الذى جعل منطقة بحر البلطيق بمثابة اوروبا صغيرة أخرى ، أى منطقة تتركز فيها جهود هذه الدول الثلاث التى تتخذ منها ميدانا للحروب التى أثارتها لتحقيق أغراضها الوطنية المحددة والمباشرة ، على مثال ماكان يحدث فى اوروبا ، مع فارق واحد ، هو أن ظهور الدانمرك والسويد وروسيا كدول حديثة لم ينشأ عنه اضطراب أو تغيير فى كيان الحضارة الأوروبية ، على نحو ما فعله ظهور الدولة الوطنية الحديثة فى أوروبا الغربية .

والسبب فى ذلك أن هذه الاخيرة ، بفضل الصراع الطويل الذى صحب ظهورها وتكوينها ، كانت قد أوجدت الشكل الذى يجب أن يستقر عليه الوضع الاوروبى وأساسه أن تكون الدولة الوطنية الحديثة هى نفسها وحدة التكوين الاوروبى الجديد . ولذلك فقد صار ميسورا عندما اكتمل فى مرحلة تالية ، نمو دول بحر اللطيق : دانمرك وسويد وروسيا أن تظهر هذه على مسرح السياسة الاوروبية دولا وطنية موحدة ، من غير

ضرورة لأن تمر فى أدوار الصراع الذى كان من نصيب بقية الدول الاوربية الحديثة أن تمر به . بل أن روسيا استطاعت ان تتخذ مكانها بين الدول الحديثة من غير حاجة اطلاقا لأن تجتاز أى اختبار أو تجربة ، أو أن تتلقى أى دروس فى النظام الذى يجب أن تأخذ به الدولة الحديثة ، وهى التجربة والدروس التى فرضها على بقية أوروبا الاصلاح الدينى البروتستنتى او انتعاش الكاثوليكية فقد بقيت روسيا أرثوذكسية المذهب .

وأما نتيجة هذين العاملين فيمكن تلخيصها فى أن التاريخ الاوروبى فى القرن السابع عشر صار مليئا بالمشكلات التى سببها زيادة عدد الدول المتنافسة ذات المصالح المختلفة ، واصطدام هذه المصالح. ومع ذلك فان هذا التاريخ سوف يكون فى الوقت نفسه اكثر تبسيطا من قبل حيث قد انتهى فى القرن السابع عشر اعتبار الدين عاملا ذا أهمية فى تشكيل او توجيه سياسة الدول الخارجية . والفضل فى ذلك انما يرجع لعودة الإستقرار والتوازن فى داخل الدولة ذاتها ، عندما اختفت منها الانقسامات الدينية الداخلية ، وصار فى استطاعتها الآن أن تعمل لتحقيق أغراضها من غير أن تبنى هذه الاغراض على دعوى العقيدة والمذهب ، بل تسعى لتحقيقها باعتبار أنها مطالب أهلية قومية ،مبعثها الرغبة القومية والشعور الوطنى ، ولاغنى عن تحقيقها لاشباع هذه الرغبة القومية وارضاء هذا الشعور الوطنى .

وهذه الحقائق التى ذكرناها ، تظهر جميعها فى وضوح ، فى حرب الثلاثين سنة ، اول حروب القرن السابع عشر . فان عدد الدول

التى اشتركت فى هذه الحروب كان يزيد كثيرا على عدد الدول التى إشتركت فى الحروب السابقة . ومع ان هذه الحروب بدأت ولها صبغة دينية كالحروب القديمة ، فانها لم تلبث بعد فترة قصيرة أن تحررت من هذه الصبغة الدينية ، وبدت حربا سياسية صريحة بين الأمم التى كانت تريد كل واحدة منها خدمة مصالحها الوطنية والخاصة بها من غير نظر الى مستقبل أوروبا الدينى نفسه ، أى من غير أن تهتم واحدة من هذه الدول بلوغ العقيدة التى قد يكتب لها النصر فى النهاية فى أوروبا . وان كان عدم الاهتمام هذا بالعقيدة لاينفى أن هذه الدول بقيت متمسكة بكل شدة بضرورة المحافظة على الوحدة الأهلية ومنع وقوع أى انقسام داخلى .